الجزء الأول

نظرة تاريخية عامة

الفصل الأول:

أزمة البروتستانتية وصعود الأصولية ١٨٧٠ ـ ١٩٣٠م

الفصل الثاني:

الإيڤانجليكية من عام ١٩٣٠م، الوحدة والتنوع،

الفصل الأول

أزمة البروتستانتية وصعود الأصولية ١٨٧٠ - ١٩٣٠م

عندما حكمت الايقانجليكية (١٨٦٥ - ١٨٩٠م)

فى الذروة من الحرب الأهلية، عادة ما ساوى الشماليون تقدم جيوش الاتحاد بتقدم مملكة المسيح. وعندما كانوا ينشدون «عندما رأت عيناى مجد مجىء الرب» لم تكن أفكارهم بعيدة عن انتصارات «الجنرال شيرمان» أو «الجنرال جرانت» وبينما قد تبدو تلك المعادلات فى الوقت الحالى وكأنها قد عفى عليها الدهر، فإنها كانت ذات معنى لهؤلاء الذين أنشدوا فى البدء «ترنيمة المعركة الخاصة بالجمهورية». وقد تكرر فى منتصف القرن ادعاء البروتستانت الأمريكيين بقرب ألفية المسيح. كان ذلك لهم عصراً من الإحياء العظيم، الذى لو كتب له الاستمرار، لبدا قادراً على «إحضار» غالبية المواطنين إلى المسيح. سوف تسجل عهود الإصلاح القومية، وحتى العالمية، هذه الفترة الخصبة للألفية المسيحية. وكانت المسيحية الأمريكية قد تميزت بالفعل بحريات الديمقراطية. وكان التقدم تجاه الإصلاحات الأخرى ظاهراً للعيان على جبهات عديدة. اشتدت المعارضة من قبل منظمات لا تقهر، ضد شرب الخمور، والعمل يوم السبت، والبغاء، والرومانية، والماسونية الحرة Freemasonry. مع ذلك فقد بدت العبودية وكأنها العقبة الرئيسية فى وجه أمريكا حتى تصبح أمة مسيحية خالصة التقوى. لو تم إلغاء العبودية، حتى بتكلفة نضال رؤيوى[1] دموى، ما بقى إلا القليل فى وجه المملكة المتوسعة، بالتأكيد كان العصر الذهبى فى متناول اليد.

---

(١) مشتق من سفر الرؤيا، وفيه معركة هرمجدون التى تسيل فيها الدماء حتى ألجمة الخيل، ولمسافة ٣٠٠ كم: «.. فانبثق منها الدم وجرى أنهاراً حتى إلى لجم الخيل، مسافة ألف وستمائة غلوة» [نحو ٣٠٠ كيلومتر] ـ رؤيا يوحنا ١٤ : ٢٠ ـ وجمعت الأرواح الشيطانية جيوش العالم كلها فى مكان يُسمى بالعبرية «هرمجدون» ـ ١٦ : ١٦ ـ المترجم.

«العصر المطلى بالذهب»

لكن ما تبع ذلك كان فى الواقع «عصراً مطليّا بالذهب». اتسمت هذه الفترة باغتيال اثنين من الرؤساء ومحاكمة رئيس ثالث آخر، وبانتخابات مسروقة، وبعهد من تفشى الفساد الهائل على المستويين السياسى والإدارى، وكذلك الطمع، والذى صوره «مارك توين» بإتقان. لقد تغطى كل شىء ثقافى تقريبًا بطبقة رقيقة من تقوى مدارس الأحد الإيفانجليكية، لكن لم تلمس بلاغة المثالية والفضيلة القلب الجامد للمادية، المتعلقة بالاهتمامات السياسية والعملية. لقد كانت ألفية فى غاية المادية، هبوطًا إلى القرش والمليم.

ازدهرت البروتستانتية من الخارج. وشك القليل من البروتستانت فى أن دولتهم هى: «أمة مسيحية». رغم أن الدين فى أمريكا كان اختياريّا، دامت السيادة لنسخة بروتستانتية من مثالية العصور الوسطى المتعلقة «بالعالم المسيحى». وقال الزعماء البروتستانت: إن الحضارة الأمريكية هى «مسيحية» بشكل جوهرى، وأعانت المبادئ المسيحية على تلاحم الأمة مع بعضها؛ لأنها وفرت القاعدة الصلبة من الأخلاقيات بين المواطنين، وبدون المبادئ التى تحكم المسئولية الفردية والاجتماعية، سوف تستحيل الديمقراطية، وسوف تسقط الأمة فى هوة الاستبداد والهلاك.

كانت هذه الادعاءات جديرة بالتصديق، فعلى الرغم من أن الحضارة الأمريكية لم تكن على الإطلاق «مسيحية» بالمعنى المتشدد، فإنها تماسكت - جزئيًا - بسبب التشارك فى مجموعة من القيم التى تحتوى على عنصر بروتستانتى كبير. كان الأطفال يتعلمون كيف يتلاعبون بالقواعد من طفولتهم المبكرة، وتقريبًا عرف كل شخص الوصايا العشر، قيمة العمل، فكرة وجوب الثواب كجزاء للفضيلة. كان تعليم هذه المبادئ مستمراً خلال العصر المطلى بالذهب، ليس داخل البيوت فقط ولكن فى المدارس العامة أيضًا. كانت المراجع المدرسية الأكثر شعبية فى هذه الفترة هى: «كتب ماكجفى المختارة». وقد بيع من هذه الكتب فى الفترة ما بين ١٨٢٦، ١٩٢٠م أكثر من مائة وعشرين مليون نسخة. تعلمت من هذه الكتب أجيال من أطفال المدارس العامة: «ثواب احترام السبت»، «الله هو الخير»، «الدين هو الأساس الأوحد

للمجتمع»، «البر لا يبلى»، «ساعة الصلاة»، «العمل»، «لا تفوق بدون عمل»، «صفة الحياة السعيدة،» «البذر والحصاد»، «الكتاب المقدس لأمى»، «الكتاب المقدس هو الأفضل». وفى كل المجالات الثقافية المهمة حيث تنتقل المُثل من جيل إلى آخر، كانت الفضائل الأمريكية تقدم داخل إطار عمل بروتستانتى خالص.

الإمبراطورية الإيفانجليكية

ترتكز السيطرة الثقافية الواضحة للبروتستانت على قاعدة متينة من العائلات والمؤسسات الأمريكية الأكثر ثراء وعراقة. عادة ما كان البروتستانت هم الأوائل فى الاستيطان فى كل مكان - تقريبًا - داخل المستعمرات الأمريكية، وكان من الطبيعى للغاية أن يستحوذ ورثتهم على معظم مواقع النفوذ والتأثير. وكان أصحاب القيادة الأمريكية فى نهايات القرن التاسع عشر فى غالبيتهم ممن يحملون أسماء أنجلوساكسونية، أو اسكوتلاندية، أو جرمانية - «چونسون»، «جرانت»، «هايز»، «تيلدين»، «جارفيلد»، «بلين»، «آرثر»، «هاريسون»، «كليفلاند»، «جولد»، «فيسك»، «روكفلر»، «مورجان»، «كارنيجى»، «هاولز»، «كليمنز»، «مودى»، «بيتشر»، «بروووكس» - مما يعكس القوة المستمرة لهذه المجموعات العرقية البروتستانتية. لهذا، فليس مما يثير أى استغراب أن تعكس القيم الأخلاقية السائدة فى الحضارة هذا الميراث.

ما يثير الإعجاب أكثر من ذلك، هو عدم تزايد التآكل فى المظاهر المسيحية لهذا الميراث. خلال نفس تلك الفترة، كانت تهب فى أوروبا رياح الأيديولوچيات العلمانية الصريحة، وقد كان للمرء أن يتوقع أن تكون أمريكا أرض المثاليات السياسية الليبرالية الثورية قد تبنت بحلول هذه الفترة مذهبًا إنسانيًا ليبراليًا معتدلاً، متحررًا من العقائد والأعراف والمؤسسات المسيحية. ترجع إلى حد بعيد إلى قوة المشروع الإيڤانجليكى، حقيقة أن أمريكا لم تتبع فى القرن التاسع عشر السبيل الذى مهده فى القرن الثامن عشر قادة من أمثال «فرانكلين»، و«چيفرسون». لم تنحرف الولايات المتحدة من الناحية الدينية خلال القرن التاسع عشر مثل أوروبا. لقد كانت تهتدى، بل وتتبع زعماء إيڤانجليكيين ملهمين، استطاعوا بفاعلية شق قنوات لقوى الإحياء وللمنظمات الدينية التطوعية لموازنة تأثير القوى الخاصة بالتغير العلمانى الخالص.

كانت الطوائف الكبرى تقف فى مركز القلب من الإمبراطورية الإيڤانجليكية، يقودها المنهجيون والمعمدانيون، والمشيخيون، وحواريو المسيح، والأبرشيون، الذين يمثلون فى مجملهم مراكز من التنظيم الفاعل والمحترم. وباستثناء الانقسامات الطائفية غير القابلة للالتئام بين الشمال والجنوب، فقد ظلت الإيڤانجليكية الخاصة بهذين الطرفين وكذلك الجماعات التابعة لهما تمثلان جبهة متحدة. هيئت أعداد ضخمة من المنظمات - المهتمة بالإرساليات، وبالإيڤانجليكية وبمدارس الأحد، وبتوزيع الكتاب المقدس، وبالحملات الصليبية الأخلاقية، وبالأنشطة الاجتماعية، وبدور النشر - وحدة إيڤانجليكية حيوية داخل سياق التنافس الطائفى الأخوى. علاوة على ذلك، كان النمو المطرد على مستوى الأعداد الفعلية، وكذلك بالنسبة للتعداد الكلى لسكان البلاد، هو صبغة الإيڤانجليكية، وكذلك الجماعات الدينية الأمريكية الأخرى خلال هذه الفترة بكاملها وصولاً إلى العقود المبكرة من القرن العشرين. وفى الحقيقة فقد ضاعفت الجماعات البروتستانتية الرئيسية من أعداد أعضائها ثلاث مرات بين عام ١٨٦٠ وعام ١٩٠٠م.

هناك مثال شهير يؤكد ما نريد إثباته. ففى الثمانينيات من القرن التاسع أعلن الملحد الأشهر فى الأمة «روبرت إنجرسول»: «أن الكنائس تحتضر بطول وعرض البلاد». وقد أجابه «تشارلز ماكاب» من جمعية توسع الكنيسة المنهجية بإرسال برقية:

عزيزى روبرت:

كل الثناء للمسيح! نحن نبنى أكثر من كنيسة منهجية فى كل يوم من أيام العام، ونقترح أن نجعلها اثنين فى كل يوم!

لقد واجهت المؤسسة الإيڤانجليكية بنجاح - يماثل نجاحها فى العديد من المجالات - مجموعة من المشكلات ذات الصعوبات غير العادية. أولاً وقبل كل شىء، فقد واجهت اختبارات فكرية غير مسبوقة، كان المتشككون من أمثال «روبرت ج. إنجرسول» يلوحون بمهارة ملحوظة بمجموعة جديدة من الأسلحة التى تدعم وجهات نظرهم. ولقد أطلق نشر كتاب داروين «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩م

الشرارة لأزمة فكرية أحاطت بالمسيحيين، بحيث لا يستطيع أى شخص متعلم أن يتجاهلها.

لقد زادت الداروينية من التركيز على قضية مرجعية (عصمة) الأجزاء الأولى من سفر التكوين. ولكن كانت القضية الأشمل هى ما إذا كان الكتاب المقدس أهلاً للثقة على الإطلاق. استمر تشكك كبار النقاد الألمان فى تاريخية العديد من روايات الكتاب المقدس فى التصاعد لما يزيد عن جيل، حتى وصل إلى درجة عالية من الإحكام بحلول فترة ما بعد الحرب الأهلية؛ حيث أصبح معلومًا للكافة فى أمريكا. لا يحتاج الأمر للمبالغة فى الأهمية الحيوية للصدق المطلق للكتاب المقدس بالنسبة لمجمل أسلوب تفكير الإيڤانجليكيين الأمريكيين فى القرن التاسع عشر. وعندما بدأ اهتزاز حجر الزاوية هذا، توجب حصول تعديلات جوهرية تبدأ من القاع وصولاً للقمة فى الصرح الإيڤانجليكى.

التمدن والعلمانية

كان المظهر المتفرد والمثير للإرباك بعد الحرب الأهلية، هو تلك الأزمة الفكرية الجاسمة المقترنة بأزمة اجتماعية للپروتستانتية، بذات الأبعاد الهائلة الضخامة. كانت البروتستانتية الأمريكية قد نمت فى عصر القرى والمدن الصغيرة، وبذلك كانت مؤسساتها قد تواءمت مع تلك الأوضاع. فى المدينة الصغيرة، وحتى لو لم يكن العديد من الأشخاص أعضاء فى الكنيسة على اتصال ببعضهم، فقد كان لمعظمهم روابط عائلية ورمزية مع طائفة ما، لذلك فقد حازت العقائد الإيڤانجليكية والمعايير الأخلاقية على تأييد محسوس نابع من توافق اجتماعى ذى تأثير. فى مدينة كبيرة يتلاشى مثل هذا التأييد. أدى نقص الترابط الاجتماعى البروتستانتى، وطوفان المغريات الأخرى إلى تآكل الولاءات الكنسية، كان الأمريكيون ينتقلون بأعداد غير مسبوقة إلى المدن الكبيرة. ومع بدايات القرن العشرين كانت الأمة تقترب من أن يعيش معظم الناس فى المدن الكبيرة، فى حين كانت الغالبية الساحقة قبل جيل واحد تسكن الأرياف. ومثلما لاحظ المؤرخ «هنرى آدامز» بخبرته الخاصة عام ١٩٠٥م: «كان الصبى الأمريكى فى عام ١٨٥٤م يقف أقرب إلى العام (١)، منه إلى العام (١٩٠٠م)».

كانت أزمة الكنيسة المقترنة بالتمدن الهائل هى الصعوبة الكبرى بالنسبة للپروتستانت؛ لأن العمالة الصناعية الجديدة التى تزدحم بها المدن الكبيرة لم تكن تنتقل فقط من الأرياف، بل كانت تأتى فى معظمها من خارج البلاد. كان معظم القادمين من الخارج بالإضافة إلى ذلك من الكاثوليك، وبشكل متزايد من أقطار لا تتحدث باللغة الإنجليزية. لذلك، وفى حين تضاعفت عضوية الكنائس البروتستانتية الرئيسية ثلاث مرات فى الفترة بين ١٨٦٠ و١٩٠٠ (من ٥ ملايين إلى ١٦ مليونًا) فقد تضاعفت عضوية الكنائس الكاثوليكية أربع مرات (من ٣ ملايين إلى ١٢ مليونًا). نظر الكثير من البروتستانت إلى هذه الزيادة المطردة للكاثوليكية على أنها تمثل تهديدًا جديًا لرفاهية الأمة. لا يوقر الكاثوليك السبت، وهم يمارسون الرقص، وبوصفهم أوروبيين فمعظمهم يشرب الخمور، وحيث إن غالبيتهم من الفقراء فقد اعتبروا بوصفهم تهديدًا للاستقرار وللطهارة الأخلاقية للأمة على وجه العموم. مع ذلك، لم يكن أمام البروتستانت إلا تعلم كيف يحيوا مع الكاثوليك على الرغم من حجم المرارة المتبادلة بين الفريقين. كانت حقائق الأمر بسيطة بالنسبة للپروتستانت. لا يستطيع البروتستانت داخل أمة تضم نسبة كبيرة من تعدادها من الكاثوليك (وآخرين من غير البروتستانت)، أن يدّعوا بأنهم يؤمنون بالديمقراطية، وأن يدّعوا أيضًا فى الوقت نفسه بوجوب استمرار الحكم بالمثاليات والقيم البروتستانتية. لم يمنع هذا المنطق من الانتشار الواسع لجهود معاداة الكاثوليكية، ومعاداة اليهودية، ومعاداة «الأجنبى». رغم ذلك، فقد واجه البروتستانت، وبخاصة داخل المدن الكبرى، حقيقة أنه يتوجب عليهم العيش مع تعددية دينية يتعذر إلغاؤها.

ما زاد من ضخامة تعقيد الأزمة كان ببساطة هو العلمنة الأساسية للثقافة الأمريكية. تزايدت صعوبة رؤية المشكلة، حيث كانت عضوية الكنائس فى ارتفاع، لذلك لم تكن هذه العلمانية تأخذ الشكل الأكثر بداهة من حيث الانحدار البسيط فى الاهتمام بالمؤسسات الدينية. وكان النقيض يبدو صحيحًا. لذلك كان الانحدار المطرد فى التأثيرات الدينية مستمرًا بكل تأكيد وبالتدريج، كانت قطاعات مختلفة من الثقافة الأمريكية آخذة فى الانحراف بعيدًا عن أية ارتباطات حقيقية مع المؤثرات الدينية.

رفع التعليم العالى، والعلم، من الحدة الدرامية لهذا التوجه خلال الفترة التى تلت الحرب الأهلية. كانت عمادة الغالبية الساحقة من الكليات الأمريكية فى عام ١٨٥٠ موقوفة على رجال الدين الإيڤانجليكيين الذين كفلوا مذاقًا إيڤانجليكيًا وأخلاقيًا متميزًا داخل المناهج الرئيسية الخاصة «بعلم الأخلاق»، و«الاقتصاد السياسى» و«براهين المسيحية». بالمثل كانت السيادة على العلم الأمريكى من لدن المسيحيين الأمريكيين. كان السبب الجوهرى وراء دراسة الطبيعة هو تمجيد عجائب خلق الله، وبحلول منتصف القرن، كان العلماء الإيڤانجليكيين قد ادعوا بكل ثقة بالصواب العلمى للكتاب المقدس. ومع نهاية القرن بدأ كل ذلك بعيدًا كل البعد بما يناظر ابتعاد عصر الديناصورات. أصبحت أفضل الكليات فى ذلك الوقت «جامعات» أو تقليدًا للجامعات، وكانت الجامعات بدورها تقوم على أساس من النموذج العلمى الألمانى، وبات كل مجال، سواء أكان الاقتصاد، أو علم السياسة، أو علم الاجتماع، أو علم النفس، أو حتى التاريخ والنقد الأدبى، يمثل فرعًا مهنيًا منفصلاً. ولم تعد المعايير المهنية منذ ذلك الوقت متأثرة بالكتاب المقدس، لكنها بدلاً من ذلك كانت تصاغ وفقًا لنموذج معايير العلم الطبيعى. وفى العلوم الطبيعية نفسها، فقد ركز بعض العلماء الأجلاء على الإعلان عن علاقة الإنجاز العلمى بالنص المقدس. وقد تعرضت الداروينية لهذه النظرة، وبدلاً من دعم العلم للجدال بأن تصميم وصنع الكون يبرهن على وجود الصانع، تحدث الناس وقتها عن «الحرب المحتدمة بين العلم والدين»، وخلال ما يقل عن جيل واحد، اختفى داخل قطاعات هائلة من الفكر والحياة الأكاديمية الأمريكية كل ما يشير إلى البروتستانتية أو إلى ما يتعلق بالكتاب المقدس.

كانت عملية الانفصال عن الاهتمامات الدينية فى المجالات الأخرى من الحياة الأمريكية أقل حدة ودرامية بشكل كبير، بسبب أنها كانت قد بدأت منذ وقت أطول، وكان ذلك صحيحًا بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية وإلى السياسة، وهما النشاطان القريبان من قلب الثقافة.

ينبغى على المرء أن يعود بتفكيره إلى الأيام الأولى للپيوريتانز (التطهريين) أو الكويكرز (الأصحاب) ليدرك هذا المدى من التغير. وعلى أية حال، كان من الواضح بحلول «العصر المطلى بالذهب» أنه من النادر أن يكون هذان النشاطان قد

تعرضا لمراجعة دينية حقيقية. قد يكون هناك بعض التأثير فى بعض الأحيان للاعتبارات الأخلاقية وكذلك لبعض الجذور المسيحية الأصيلة، مثلما أثر فى الحركة التقدمية بعد نهاية القرن. مع ذلك، وفى أغلب الأحيان، أديرت السياسة الأمريكية بواسطة أحكامها الخاصة بها، وبحرية تامة بعيدة عن تدخل القيود الأخلاقية، وذلك ما أثار فجيعة «هنرى آدامز» فى روايته «الديمقراطية» (عام١٨٨٠م). لقد صب قائد الأمة السياسى فى واشنطن فى قالب من «يتحدث عن الفضيلة، ويمارس الرذيلة، كرجل يعانى من عمى الألوان، فيتكلم عن اللون الأحمر بدلاً من اللون الأخضر». وكان عالم الأعمال يدار بعلاقة مشابهة بين الاعتبارات المسيحية والأخلاقية، وبين الاعتبارات النفعية.

يقول «چون د. روكفلر» وهو معمدانى نشط: «لقد أعطانى الله أموالى» على الرغم من أنه حصل على معظمها عن طريق ممارسات احتكارية خبيثة، أطاحت بمنافسيه خارج مجال العمل، ويعظ «أندروكارنيجى» بشكل أكثر علمانية عن «إنجيل الثروة». وعلى أية حال ففى كلتا الحالتين تبدو الاعتبارات الدينية والأخلاقية موجهة لتبرير ما قد تمليه متطلبات التنافس على النجاح فى العمل.

بعدها، واجه البروتستانت الأمريكيون فى نهاية القرن التاسع عشر موقفًا شاذًا. كانوا ناجحين على المستوى الظاهرى. كان يمكن للمرء رؤية ذلك عبر الصروح الحجرية الضخمة التى تطل مباركة لزوايا الشوارع فى المدن الكبيرة والصغيرة. كذلك، على المستوى الداخلى فيمكن لهم الإشارة إلى بعض الثروة الروحية الحقيقية. كان الملايين من الرجال والنساء والأطفال يجنون الفائدة من كنائسهم، يزدهرون روحيًا، ويهبون حياتهم فى سبيل خدمة الله وخدمة أتباعه. لم يكن الحماس من أجل إرساليات التبشير الخارجية أعلى منه فى ذلك الوقت، وكانت دوافع هؤلاء الذين قاموا برحلات شاقة إلى البلاد الأجنبية، هى تضحيات ذاتية فى أغلب الأحيان. قام العديد من الآخرين بتقديم العون إلى جيرانهم بأساليب خفية هادئة عصية على التسجيل، وفى حين كان تأثير المسيحية البروتستانتية يتقلص فى العديد من المجالات العامة، فقد كانت التأثيرات فى الحياة الخاصة قوية وإيجابية بأساليب لا تحصى، وبخاصة فى تعليم الفضيلة والمسئولية.

رغم ذلك، كان النجاح خادعًا. فى الخلف من هذا النجاح ـ مثلما شوهد بعد ذلك ـ كانت تكمن مشكلات ذات وقع ثقيل: تحديات فكرية تستعصى على القهر تنحر التآكل فى الإيمان بالكتاب المقدس، وهجرات كثيفة إلى المدن الكبرى، علاوة على أن هجرة الشعوب غير البروتستانتية إلى أمريكا، أفرزت علمانية حالت بين معظم حياة الأمة وبين النفوذ الدينى الفعّال. كانت المشاكل ضخمة، وربما غير قابلة للحل بالتعبير الإنسانى. ومع هذا، تسبب النجاح السابق فى توجه لإخفاء أبعاد الأزمة، كما تسبب فى بعض الأحيان فى استدعاء الحلول السطحية، مثل العمل على الحفاظ على الاحترام للبروتستانتية، على حساب الرسالة البروتستانتية التبشيرية الواجب عليها التحدى، بدلاً من الخضوع لـ «نظام القيم» الذى فى طريقه إلى السيطرة على الحياة الأمريكية.

الدعاة النجوم

تكشف سير معظم الشخصيات الدينية ذات الشعبية لتلك المرحلة الزمنية عن بروتستانتية تلك المرحلة بشكل أكبر مما تفعله تأريخات الطوائف الرئيسية. وفى الحقيقة، تفرض الطوائف الولاءات، وبخاصة عندما ترتبط مع الإرث العرقى للشخص، لكن فى أمريكا كان الإيمان الشعبى من القوة بحيث أصبح الفرد يمثل الوحدة الدينية الأساسية، وكان الانتماء الطائفى فى حده الأقصى هو مسألة اختيار حر، وقد تسبب عن ذلك أن كانت الهياكل الطائفية ضعيفة إلى حد ما. إذا أصبحت لا تحب كنيسة ما، فما عليك ببساطة إلا أن تغادرها ذاهبًا إلى الأخرى التى فى نهاية الشارع. ترتب على ذلك، أن الولاءات الدينية الأقوى للعديد من الناس تولدت تجاه الوعاظ ذوى الجاذبية، وأصبحت هذه السمة واضحة بشكل خاص عقب الحرب الأهلية، مثلما كان الحادث فى عالم الأعمال فى نفس الوقت، عندما أفرزت هذه النوعية من المؤسسات الحرة نجومًا كبارًا ارتفعوا إلى القمة فى التنافس على اجتذاب الشعب. عبرت بوضوح سمات ورسالات هؤلاء النجوم الدينيين عن الرأى البروتستانتى المفضل.

هنرى وارد بيتشر

كان «هنرى وارد بيتشر» هو أشهر الوعاظ فى تلك الفترة (١٨١٣ - ١٨٨٧م). جاء «بيتشر» من العائلة الأولى لبروتستانتية القرن التاسع عشر، وكان والده «ليمان بيتشر» هو الذى يلى مباشرة «تشارلز فينى» فى الشهرة بوصفه زعيمًا مشيخيًا وأبرشيًا. لمع العديد من أبناء ليمان، ومنهم «هارييت بيتشر ستو»، المشهورة فى جميع الأرجاء بمؤلفها «كوخ العم توم» وحظى «هنرى وارد بيتشر» بنفس الشهرة، وكان ينظر إليه قطاع عريض من الناس بوصفه ممثلاً لجميع من يملكون النظرة التقدمية فى البروتستانتية الأمريكية.

شغل «هنرى» فى ١٨٤٧م منصب راعى كنيسة پلايموث فى بروكلين (الأبرشية) بنيويورك ولمدة أربعين عامًا. كانت بروكلين فى تلك الأيام ضاحية للطبقة المتوسطة المزدهرة، ونموذجًا لثقافة الضواحى التى سوف تميز أمريكا القرن العشرين. كان دور «بيتشر» هو تيسير الطريق من أجل صنع التحول الدينى من مرحلة زمنية إلى مرحلة أخرى، وكان الإرث الدينى للأمريكيين الأتقياء من العنصر الأنجلوساكسونى كلفينيًا، وكان «ليمان» والد «هنرى» معروفًا فى بوسطن بأنه «بيتشر النارى». والآن، فإن المزاج الحديث والمهذب لقاطنى الضواحى قد بدا غير ملائم للعقائد الكلفينية الحادة مثل: الفسوق الشامل، أو قوانين الله الأبدية لاختيار البعض للفوز بالخلاص، ونترك الآخرين للخلود فى الجحيم الأبدى. أثار الفكر الحديث ـ وبخاصة الداروينية ـ المزيد من الأسئلة حول أسس الإيمان التقليدى. أعاد بيتشر الاطمئنان لمستمعيه ـ وهو عمدة «علم اللاهوت الجديد» الأكثر شعبية ـ بأن المسيحية تتطور مع العصر الحديث، وليس المرء فى حاجة إلى القلق على الصواب الحرفى لعقائد الكتاب المقدس، وقال: لقد تطورت أشجار الحضارة منذ أزمنة نزول الكتاب المقدس فهل يتوجب علينا إذن «أن نعود إلى الوراء ثم نتحدث عن بذور هذه الأشجار؟» علاوة على ذلك، فإن دين العصر الحديث هو قضية تتعلق بالقلب بدلاً من كونها مسألة عقيدة خالصة وجامدة. اتسمت هذه العواطف بجاذبية من قبل المفاهيم والأحاسيس الرومانتيكية لذلك الوقت، وأعاد «بيتشر» الطمأنينة لمستمعيه بأن المسيحية قد ارتفعت من خلال المبادئ الأكثر رقيًا أخلاقيًا.

كان أثر جاذبية هذه الرسالة بالغًا، لقد نحى «بيتشر» جانبًا العديد من العقائد التقليدية بدون إنكارها، ولكنه صبغ هوية المسيحية بالمثاليات الأعلى لثقافة الطبقة الوسطى التى تحظى بالاحترام، وقد حظى بوجاهة هائلة إلى درجة الإبقاء على سمعته الطيبة رغم الفضيحة التى اتهم فيها عام ١٨٧٤م بإغواء زوجة أحد أتباع كنيسته. استمر تداول المحلفين لثمانية أيام، وبعد اثنين وخمسين اقتراعًا لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق على قرار. لذلك، اعتبر «بيتشر» غير مذنب، وربما بريئًا، وسرعان ما عاد إلى دوره بوصفه القديس الأمريكى الرائد، وقد أظهر جاهه بعدها بعدة سنوات عندما اتخذ بعض أعضاء هيئة الأبرشية الإقليمية خطوات لتوجيه اتهامات بالهرطقة ضد عقائده اللاهوتية، وقد انفصل «بيتشر» ببساطة عن الهيئة، لقد أصبح الفرد الأقوى نفوذًا من المؤسسة.

فيليبس بروكس

كان «فيليبس بروكس» (١٨٣٥ - ١٨٩٣م) هو نظير «بيتشر» فى بوسطن، ومثل بيتشر، فهو سليل البيوريتانية، وكان أقل منه تألقًا، ولكنه حظى بنفس الاحترام. وقد ساعد بوصفه كاهنًا لكنيسة الثالوث المقدس الأسقفية من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٩٣ على تحرير كنيسة بوسطن من الشدة الباقية من خشونة الميراث الكلفينى. كان بروكس من الرواد الأوائل لسلسلة من المفكرين الإيجابيين من الوعاظ الأمريكيين، كان ينصح «آمن بنفسك»، «بجل طبيعتك البشرية، ذلك هو الخلاص الوحيد من كل رذيلة مهلكة ومن كل إيمان زائف..» كانت رؤاه بخصوص الطبيعة البشرية هى فى الواقع تمثل النقيض للرؤى الخاصة بالكلفينية، وقد صرح «أن الحقيقة النهائية للحياة الإنسانية، هى الخير وليست الخطيئة»، كان بروكس، مثله مثل كل واعظ أمريكى محبوبًا من العامة فى العصر الحديث، يؤمن إيمانًا عظيمًا بأمريكا ذاتها، وقد قال بعاطفة دائمًا ما أظهرها الوعاظ الأمريكيون المشاهير وكذلك مستعموهم: «أنا لا أعرف كيف يكون المرء أمريكيًا، ثم لا يفهم ماذا أراد الله من هذه الأمة العظيمة»، وكان «بروكس» - مثله مثل «بيتشر» - متمكنًا من الدمج بين الفكر المعاصر وبين المسيحية فى إطار رسالة «أمريكية» تتسم بالتفاؤل مع اتجاه محافظ على المستويين الاجتماعى والسياسى.

چوشياه سترونج

تشابه «چوشياه سترونج» (١٨٤٧- ١٩١٦م) كثيراً مع «بروكس» فى «قانون النمو» مستخدمًا الداروينية لتفسير مسيحية ذات اعتماد على النفس وفردية، واستخدم «سترونج» الداروينية لإضفاء بعد جديد على القومية الأمريكية المسيحية. كان «سترونج» نجمًا من نوع يختلف عن «بيتشر» أو «بروكس»، لقد حاز على الشهرة عن طريق كتاب «بلادنا ـ (١٨٨٥)» الذى سرعان ما حصل على أفضل مبيعات. كان يعمل سكرتيراً لـ «جمعية الإرساليات الوطنية» ومثل كتابه بصراحة دعوى من أجل المزيد من الجهود الإرسالية المسيحية الحثيثة داخل أنحاء البلاد. رأى حل الأزمة الاجتماعية الأمريكية فى التنصير، وحث بوضوح على تنصير المهاجرين حتى يتحولوا بسهولة إلى أمريكيين.

كان الوضع قد أصبح داعيًا لليأس: «إن مدننا التى تجمع أخطر عناصر حضارتنا سوف تبرهن، ما لم نقم بالتنصير، على تدمير مؤسساتنا الحرة».

وقد عكست وجهات نظر «سترونج» بعض نظريات داروينية اجتماعية معاصرة تتعلق بالعرق، لقد آمن بأن الأنجلوساكسون قد برهنوا على تفوقهم عن طريق حفاظهم على البقاء، وسيطرتهم المتنامية فى أنحاء العالم.

يظهر تفوق الشعبين: البريطانى والأمريكى فى اعتناقهم مبادئ البروتستانتية والديمقراطية. واجب على الرجل الأبيض أن يعمل على تقوية الأعراق الأخرى عن طريق إشراكهم فى هذه المبادئ، وبخاصة المسيحية[١].

كان لوجهات النظر التى يعتنقها «سترونج» هذه تأثير مؤكد على السياسة الخارجية الأمريكية، كانت اللحظة الفارقة والأكثر شهرة عندما واجه الرئيس «ويليام ماكنيلى» خلال الحرب الأمريكية الإسبانية عام (١٨٩٨م) معضلة ما يتوجب فعله مع الفيليبينيين، الذين استخلصهم الأمريكيون من أيدى الإسبان، وعقب أداء الصلاة فى وقت متأخر ذات ليلة، اهتدى إلى الحل: «لم يبق لنا شىء لنفعله إلا أن نأخذهم

(١) مثلت هاتان الفكرتان: تفوق الأنجلوساكسون العرقى، وحمل الرجل الأبيض المتمثل فى نقل حضارته وثقافته إلى العالم الآخر، قاعدتين أيديولوچيتين للحركات الاستعمارية لأوروبا وأمريكا فى القرن التاسع عشر ـ المترجم.

جميعًا، ثم نعلّم الفيليبينيين، ونرقيهم ونمدنهم وننصرهم، وأن نبذل قصارى جهدنا معهم بفضل الله، كأقراننا الذين مات المسيح من أجلهم أيضًا»[1].

راسل هـ. كونويل

المعمداني «راسل هـ. كونويل» (١٨٤٣ - ١٩٢٥م) هو الذى بنى فى فيلادلفيا أضخم كنيسة فى أمريكا، استجاب للحاجات الإرسالية فى أيامها مع نسخة أخرى لإنجيل الارتقاء. لقد نظر «راسل» ـ مثله فى ذلك مثل «سترونج» ـ إلى المدن بوصفها المناطق الحساسة للجهود الإرسالية الوطنية. لم يكن قنوعًا مثل «بيتشر» أو «بروكس» بأن يوجه عظاته فقط لهؤلاء الذين ارتقوا اجتماعيًا، لكن هذا القس المعمدانى قد عمل بلا كلل على أن يجعل كنيسته تستجيب أيضًا لهؤلاء الذين لم يصلوا بعد إلى مستوى الطبقة الوسطى من البروتستانت. ترتب على ذلك أن حوّل «كونويل» كنيسته المعمدانية إلى «كنيسة مؤسساتية» أو مركز لمؤسسات الخدمة الاجتماعية من أجل خدمة أهل الجوار على مدار الأسبوع. كما وفّر مجمع المؤسسات الخاص به صالات الألعاب الرياضية، وبرامج التدريب البدنى، وصالات القراءة، ورياض الأطفال اليومية، والمحاضرات التعليمية، والأنشطة الثقافية، وكلية (أصبحت الآن جامعة تمپل)، ومدرسة كونويل لعلم اللاهوت.

فى حين كان كونويل إصلاحيًا اجتماعيًا، وكذلك من أهل الإحسان حيث استجاب للحاجات المتغيرة للمدينة، إلا أن رسالته هى أنه ينبغى على الناس أن يساعدوا أنفسهم. كان «كونويل» واحدًا من أشهر المحاضرين فى أمريكا، وقد ألقى محاضرته المعنونة «هكتارات من الماس» ـ لعدد لا يصدق من المرات- ستة آلاف مرة (بما يعنى بمتوسط ١٥٠ مرة فى العام لمدة أربعين عامًا)، وربما ذلك هو أقصى تكرار لجدل عرفه التاريخ! حددت محاضراته طريقًا واحدًا للنجاح، وتحديدًا، أنه من الواجب على المسيحيين أن يصبحوا أغنياء، وأنك سوف تجد مساحات شاسعة من

(١) كلف ذلك الفيليبينيين أكثر من مائة ألف قتيل [أى أكثر من ١٠٪ من سكان الفيليبين ذلك الوقت] طبقًا لما جاء فى كتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية» لمؤلفه المؤرخ الأمريكى والتر. أ. ماكدوجال، ترجمة رضا هلال، ومن منشورات دار الشروق، ٢٠٠١م ـ صفحة ١٦٧.

الأرض المليئة بالجواهر والماس فى حديقة بيتك الخلفية، فقط إذا وجهت النظر إليها.

دوايت ل. موودى

كان «دوايت ل. موودى» هو الإيڤانجليكى المهنى الرائد فى أيامه (١٨٣٧-١٨٩٩م)، وحياته الخاصة هى أوضح مثال على الحلم الأمريكى بالنجاح. نشأ فى بلدة صغيرة فى نيوإنجلاند، وأقام مشروعًا ناجحًا فى مجال الأحذية فى شيكاجو، وسرعان ما تحول للإيڤانجليكية، وبعد عدة سنوات من العمل المحلى الناجح، سافر هو وشريكته «إيرا سانكى» إلى بريطانيا العظمى فى جولة متواضعة من أجل إلقاء العظات. لاقت الجولة نجاحًا كبيرًا واستمرت من عام ١٨٧٣ إلى عام ١٨٧٥م. وأصبح «موودى» و«سانكى» عقب عودتهما إلى الوطن من الأبطال القوميين. وشن «موودى» على مدار ما تبقى من حياته حملات إيڤانجليكية ضخمة فى كل المدن فى أمريكا.

لم يكن «موودى» إيڤانجليكيًا مثيرًا مثل «تشارلز فينى» الذى سبقه، أو مثل «بيلى سانداى» الذى أعقبه فى الجيل التالى، لكنه كان يبدو مثل أحد رجال الأعمال فى تلك الحقبة الزمنية، ويستولى على لب مستمعيه عن طريق أسلوب عاطفى عائلى فى تلاوة الحكايات.

كانت رسالته بسيطة وكانت تتضمن: «ثلاث كلمات تبدأ بحرف اللغة الإنجليزية R» «الهلاك بالخطيئة، والخلاص بالمسيح، والميلاد الجديد بالروح القدس»، كان هدفه البارز هو خلاص النفوس. ومن أشهر أقواله: «أنا أنظر إلى العالم بوصفه وعاء مهشمًا. لقد وهبنى الله قارب الحياة قائلاً لى: موودى: انقذ كل من تستطيع».

أدى هذا التركيز على خلاص النفوس من عالم متهالك إلى بعض التغير فى الإيڤانجليكية الأمريكية العامة. كان الكثير من البروتستانت منذ الحرب الأهلية فاقدين الثقة فى الحلول الاجتماعية لمشاكل العالم. كانت إحدى علامات فقدان الثقة هى تزايد شعبية عقيدة ما قبل الألفية، والتى تؤكد على أن العالم لن يتحسن

إلا بعد عودة المسيح لإقامة مملكته على الأرض، وقد قدم «مودى» وجميع أصحابه هذه العقيدة خلال عظاتهم، ومع ذلك لم تؤد عقيدتهم «ما قبل الألفية» إلى تحقيق الرضا. بدلاً من ذلك، فقد اضطرتهم إلى بذل المزيد من الجهود الإرسالية الإيڤانجليكية الشاقة (انقذ كل من تستطيع). ولقد أسس «مودى» بنفسه مراكز تشع تلك الجهود، وتبنى فى شيكاجو عام ١٨٨٦م معهداً للكتاب المقدس (أطلق عليه فيما بعد معهد مودى للكتاب المقدس) لتدريب الأفراد العاديين على الجهود الإيڤانجليكية. وكانت مؤتمراته فى نورث فيلد هى الأشد أهمية فى ذلك الوقت، وكان يعقدها بالقرب من منزله فى ماساشوستس. نمت من خلال ذلك واحدة من أعظم الجهود الإرسالية فى تلك الفترة، وهى «حركة الطلاب المتطوعين» التى تأسست عام ١٨٨٦م، وقد وهب آلاف من الطلاب أنفسهم من أجل أعمال الحياة الإرسالية، وقد لخص شعار الحركة ـ بشكل جيد ـ الأهداف الخاصة بـ «مودى» وتحويل العالم إلى «الإيڤانجليكية».

عهد الحملات الصليبية[1] (١٨٩٠ - ١٩١٧م)

يلخص شعار «حركة الطلاب المتطوعين» بشكل جيد الروح الخاصة بالپروتستانتية الأمريكية فى ذلك الوقت. لم تكن تلك الفترة هى مرحلة من التقوى والحماسة العظميين فقط، لكنها كانت أيضًا فترة الإنجاز. من أجل إنجاز شىء، فعلى المرء أن يتناوله بالحماس والتنظيم. لا حدود لمدى الإنجاز إذا خطط المرء لحماسه بكفاءة. كانت المنظمات الأكثر كفاءة هى تلك التطوعية؛ لأن الناس يتطوعون ويتفانون من أجل هدف محدد، لذلك كانت المنظمات التطوعية، وكذلك الحملات الصليبية هما صاحبتى السبق للپروتستانتية الأمريكية، ومن خلال هاتين الوسيلتين تحركت شبكات هائلة من الپروتستانت ضمت جميع الطوائف الرئيسية من أجل الخدمة والإرساليات المسيحية.

لقد عظّمت مسيرة «دوايت مودى» من هذا التوجه، وفى حين حافظ على علاقات طيبة مع بقية الطوائف، إلا أن «مودى» تخطى الانتماءات الطائفية ليبنى

(١) يُطلق الأمريكيون مصطلح الحملة الصليبية على كل الحملات المسيحية الخيرية، فمثلما نقول الحرب على المخدرات، أو الحرب على الأمية، يقول الأمريكيون: حملة صليبية على المخدرات، أو حملة صليبية على الأمية ـ المترجم.

إمبراطوريته الإيڤانجليكية الخاصة والمتحررة من السيطرة الإكليريكية. وكانت مسيرة «موودى» الإيڤانجليكية قد بدأت فى الواقع داخل واحدة من المنظمات الجنب كنسية المبكرة وذات الأهمية القصوى، وهى «جمعية الشبان المسيحيين». ومثل العديد من المنظمات الإيڤانجليكية التى أتت من انجلترا، كانت «جمعية الشبان المسيحيين» و«جمعية الشابات المسيحيات» قد تأسستا فى منتصف القرن التاسع عشر للعمل كمركزين للإيڤانجليكية من أجل الشباب المنتقل إلى المدن؛ لذلك فقد شكلا عنصرين مهمين فى الجهود الإرسالية الوطنية الإيڤانجليكية.

الإرساليات

ظلت الإرساليات، سواء أكانت إيڤانجليكية داخل الوطن، أو ذات نشاط خارجه، تمثل محور الحملات الصليبية البروتستانتية.

بدأ نشاط البروتستانت الأمريكيين فى الإرساليات خارج الوطن من بواكير القرن التاسع عشر، لكن حماسهم اشتعل عقب عام ١٨٩٠م، وقادوا مع نظرائهم من البريطانيين المقدمة لإرساليات مسيحية فى غاية العظمة، إلى درجة أن المؤرخ «كينيث سكوت لاتورين» قد أطلق على تلك المرحلة من عام ١٨١٥ إلى عام ١٩١٤م اسم «القرن العظيم للإرساليات المسيحية»، وبالتأكيد كانت الفترة من عام ١٨٩٠م إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى هى الفترة الذهبية للإرساليات البروتستانتية.

كانت جهود الحركة داخل الوطن على نفس القدر من الطموح، وكانت هناك قبل الحرب الأهلية «إمبراطورية» من الوكالات الإيڤانجليكية الوطنية، للإرساليات للداخل وللخارج، ومدارس الأحد وتوزيع الكتاب المقدس، والنشرات الدينية، والأعمال الخيرية وجمع الهبات، والإصلاح، وغالبًا ما تعاونت هذه «الجمعيات التطوعية» مع الوكالات الطائفية فى فترة ما بعد الحرب، واستمرت فى توفير آخر ما تم التوصل إليه فى تنظيم الدوافع الروحية.

المثال الجيد على ذلك كان نمو حركة مدارس الأحد. كان اتحاد مدارس الأحد الأمريكية ـ الذى تأسس على وكالة بريطانية ـ يقوم على مدار جيل كامل بتحويل

الأطفال إلى الإيڤانجليكية، بطول وعرض الأمة، ومع نمو المدن عقب الحرب الأهلية، ظهرت مدارس الأحد بوصفها من أكثر الوسائل أهمية للوصول إلى من هم ليسوا أعضاء فى الكنائس، وغالبًا ما أمكن الوصول إلى العائلات من خلال أطفالهم. ترتب على ذلك أن أعاد زعماء المؤسسات بعث الحيوية فى حركة مدارس الأحد عن طريق تنظيمات وتقنيات جديدة، ونظمت تحت زعامة المعمدانى «ب. ف. چاكوب» «أيام القرار» و«أيام جمع الشمل». كان المدرسون يجتمعون مع بعضهم البعض فى اجتماعات دورية على مستوى المقاطعة؛ لابتكار خطة «درس نمطى» من أجل إتاحة اجتماع أعضاء الطوائف المختلفة مع بعضهم البعض للإعداد لدرس الأسبوع التالى. تم أيضًا تعبئة الشبان والبالغين من خلال فصول مدارس الأحد، إلى الحد الذى تحولت به كل الجماعة البروتستانتية إلى وكالة للإيڤانجليكية. أصبح «كل فرد يفوز بفرد» هو شعار العديد من فصول «باركا ـ Baraca» (للرجال) و«فيلاثيا ـ Philathea» (للنساء) بنهاية القرن، وبحلول عام ١٩١٣م ارتاد هذه الفصول المنظمة على المستوى القومى ما يصل مجمله إلى ما يقارب مليون عضو من اثنتين وثلاثين طائفة، كما أفرخت العديد من المقلدين. وفى بعض الأحيان فإن مدارس الأحد قد طغت حتى على تجمعات رعايا الكنائس، وقد حاز مدير مدرسة الأحد من الأهمية ما قد يقارب أهمية راعى الكنيسة.

الحالة المشابهة هى حالة نمو «جمعية المساعى المسيحية» أسسها «فرانسيس إى. كلارك»، وهو كاهن بلدة «ماين» عام ١٨٨١م «من أجل تعزيز الحياة المسيحية الجادة، وتوفير التدريب على الخدمة المسيحية». وبأسلوب مماثل، كانت جماعات «المساعى المسيحية» تعقد اجتماعات تكريس أسبوعية، وكذلك لقاءات شهرية للرسامات الخاصة. كان النص البسيط للعهد هو: «أنا أصدق بالله عيسى المسيح الذى يمنحنى القوة، وأعاهده على النضال لفعل أى شىء أراده منى». ولقد نمت منظمة «كلارك» بسرعة هائلة بين الشباب، وبحلول عام ١٨٨٥م أمكنه تأسيس منظمة دولية، ضمت ٣,٥ مليون عضو فى عام ١٩١٠م، وجاء الثلثان من هؤلاء الأعضاء من الولايات المتحدة وكندا، وكان لهذه المنظمات تأثير جانبى مهم أسفر عن توحيد البروتستانت من جميع الطوائف.

ينبغى النظر إلى الحملات الصليبية الأكثر شهرة فى تلك الفترة من داخل ذلك السياق. الأكثر نجاحًا من بينها كانت هى «حركة الاعتدال» التى حاولت حظر تعاطى المشروبات الروحية. كان لهذه الحركة - مثلها مثل العديد من الحركات الأخرى - جذور عميقة تعود إلى أوقات مبكرة من القرن التاسع عشر، لكن أعيد إحياؤها بفاعلية وتنظيمها بكفاءة خلال العهد الجديد من الحملات الصليبية البروتستانتية.

مثّل الاعتدال وضبط النفس قضية أمكن أن تحظى بالموافقة والإجماع التام من قبل الليبراليين والمحافظين، وهى واحدة من قليل من القضايا التى استطاع البروتستانت أن يجعلوا منها هدفًا مشتركًا مع بعض زعماء الكاثوليك.

وعلى النقيض من ذلك، كانت الحملة الصليبية من أجل مراعاة السبت هى الأقل نجاحًا بين الحملات الرئيسية. يوم السبت البيوريتانى - وهو يوم الرب الواجب التعبد فيه بدلاً من اللهو أو العمل - كان واحدًا من الرموز الرئيسية للحضارة البروتستانتية فى أمريكا، وقد جاء التهديد لهذه العادة من جانب الأوروبيين المهاجرين من بعض المجموعات البروتستانتية التى لم تكن من السبتيين، وكذلك القادمين من أقطار كاثوليكية بوجه خاص. كان «يوم السبت الأوروبى» الخاص بهم لا يزيد عن كونه عطلة. لقد شجعت العلمانية ذلك التوجه الأوروبى، مثلما كان رد الفعل من جانب بعض البروتستانت على التمسك بالسبت بصرامة تتجاوز الحد. ولقد قاتل الكثير من البروتستانت لفرض عاداتهم المتعلقة بيوم السبت بالأسلوب التشريعى، محاولين حظر الأنشطة التجارية والصناعات وأماكن اللهو من العمل فى يوم السبت، وكانت الجهود فائقة على وجه الخصوص من أجل إغلاق المعرض التجارى المئوى فى فيلادلفيا أيام الآحاد عام ١٨٧٦م، والمعرض التجارى الكولومبى فى شيكاجو عام ١٨٩٣م. وقد منيت جهود السبتيين بهزيمة شاملة فى اللحظة الأخيرة، ومع ذلك ففى خلال هذه الفترة ظل إغلاق الأعمال والصناعات أيام الآحاد ساريًا فى معظم الأرجاء.

ظلت حملات الاعتدال ومعها مبدأ السبتية فى النظر السائد بين مؤيديها على أنها ليست فقط شخصية، وإنما هى إصلاح اجتماعى مهم. غالبًا ما كان يُنظر إلى

استهلاك المشروبات الكحولية على أنها مشكلة «إدمان» تنتشر فى المدن، وتتشابه تلك النظرة مع النظرة التى ينظر بها فى الأوقات الأخيرة إلى المخدرات، وفى معظم الأحيان كان النظر إلى الفقر فى الضواحى يبدو مرتبطًا بتبذير المال والوقت والعافية على الخمر. وكان النظر إلى مبدأ السبتية يحدث فى السياق نفسه، فقبل ظهور النقابات العمالية الفعّالة، وحينما كان أصحاب الصناعة يطلبون من عمالهم أن يعملوا ستين ساعة فى الأسبوع أو حتى أكثر من ذلك ـ أصبح فرض عطلة السبت يمثل ركنًا مهمًا من التشريع العمالى. وللمفارقة، لم تنتقل الحماسة البروتستانتية إلى الإصلاحات العمالية الأخرى، بحيث لم يبد السبتيون الذين يحظرون الترفيه والعمل يوم الأحد إلا القليل من الاهتمام لهؤلاء الذين عليهم أن يعملوا بالتقريب فى كل ساعة من ساعات يقظتهم على مدار ستة أيام فى الأسبوع.

النساء كمصلحات

كان النشاط والإصلاحات الإيڤانجليكية فى تلك الفترة مرتبطًا بشكل وثيق بتغير أدوار النساء، ولقد حددت هذه التغييرات العديد من الاتجاهات. كان أحد أقوى الدوافع بين البروتستانت الذين حكموا الثقافة هو المبالغة فى الإعلاء من دور النساء فى المنزل. لموازنة بعض من الفردية ومن عقلية إدارة الأعمال التنافسية فى تلك الأيام، ساد الإيمان بأن المجتمع لن يكون قويًا إلا بقوة مؤسستيه الأساسيتين: المنزل والكنيسة، ورغم أن الوضع التقليدى للكنائس لم يسمح بالكهانة إلا للرجال، فقد كان من المنتظر أن تصبح النساء هن القادة على المستويين الأخلاقى والروحى داخل المنزل، كان الرأى أن لهذا الدور وظيفة رئيسية أيضًا، حيث اعتبرت النساء الحارسات الرئيسيات للقيم العليا للمجتمع، وقد شهد ما لا يحصى من الرجال والنساء بأنهم قد تعلموا هذه القيم وهم فى حجور أمهاتهم.

عززت رؤية مشابهة للتفوق الأخلاقى والروحى للنساء من التوسع التدريجى لأدوارهن العامة، وكذلك شكلت النساء ما يزيد على النصف من أعضاء الكنيسة، وكانت الكنائس أولى المحافل العامة التى سمحت بتنظيماتهن داخلها. مثلت الجمعيات الكنائسية الغالبية الساحقة من التنظيمات النسائية فى تلك الفترة،

وسعت النساء فى تلك التنظيمات إلى توسيع أدوارهن بوصفهن رائدات للدين وللفضيلة، وحين وصلت الحركة الإرسالية إلى ذروتها فى تلك الفترة، كانت النساء هن ركائز الدعم المحلى. علاوة على ذلك، قدمت النساء الخدمة بوصفهن مبشرات، ولسْنَ كمساعدات لأزواجهن فقط، ولكن أيضًا وفى الغالب بمفردهن، حيث سمح لهن بأدوار رئاسية داخل الإرساليات الأجنبية أكبر مما هو متاح لهن داخل النظام الكنسى فى أمريكا.

روجت منظمات الكنيسة النسائية لمجموعة من خدمات الإحسان والإصلاح، وقد دفعت بعض هذه المجهودات بهن إلى دخول مجال السياسة، وكانت حركة الاعتدال هى الأكثر بروزًا فى ذلك التوجه، حيث جسدت مساهمات النساء محور تلك الحركة. كان الاتحاد النسائى للاعتدال المسيحى الذى رأسته «فرانسيس ويلارد» (١٨٣٩ - ١٨٩٨م) منذ عام ١٨٧٤ إلى عام ١٨٩٨م، هو الذى لعب الدور الرئيسى بين تنظيمات الكنيسة النسائية فى تلك الحملة. كانت «ويلارد» ميثودية غيورة، وكانت على اقتناع بأنه يتوجب على القوة الأخلاقية للمسيحيين أن تقاتل ضد المشكلة الرئيسية لتعاطى مخدرات ذلك الوقت [الخمر].

قوّت الحماسة لهذه الأهداف من طلب السماح للنساء بالإدلاء بأصواتهن فى الانتخابات. كان من رأى «فرانسيس ويلارد» والعديد من النساء الناشطات الأخريات أن حق النساء فى الإدلاء بأصواتهن يمشى يدًا بيد مع الإصلاح الاجتماعى، وتأسس جدالهن على أنه إذا كان للنساء اليد العليا على المستويين الأخلاقى والروحى، فإن المجتمع سوف يجنى الكثير إذا سمح لهن بالتصويت.

قدمت مطالب فى الوقت نفسه داخل الكنائس البروتستانتية من أجل فتح مكاتب إدارة الكنائس أمام النساء، وبحلول النصف الثانى من القرن التاسع عشر حصلت بعض النساء على الرسامة الكهنوتية، لكن مثل هذه الإصلاحات قد حدثت بشكل كبير خارج التيار الرئيسى للبروتستانتية الأمريكية. قامت بعض كنائس نيوإنجلاند الأكثر ليبرالية برسامة النساء، لكن المكاسب الأكثر إثارة للانتباه جاءت من بعض كنائس القداسة الجديدة والتى سمحت للنساء بإلقاء العظات

وإجراء الرسامة كعلامتين على عصر جديد من العطف الجارف من قبل الروح القدس. أما فى معظم كنائس التيار الرئيسى للپروتستانتية، فكانت المكاتب الثانوية للكنائس هى التى فتحت أمام النساء بحلول عشرينيات القرن العشرين، وجرى السماح بالرسامة لرتبة الكهنة للنساء بحلول خمسينيات ذلك القرن. مع ذلك، جاءت مقاومة مثل تلك الأفكار من جانب العديد من البروتستانت المحافظين.

الانخراط الاجتماعى والتراجع فيه

مع انتقال البروتستانت الأمريكيين من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، كان فى مواجهتهم قائمة طويلة من المشاكل الاجتماعية الجديدة، والتى أدت إلى انقسامهم بخصوص ماهية الاتجاه الذى ينبغى أن يقودهم حماسهم الأخلاقى إليه. كان هناك اتجاه يؤمن بأنه يجب على المسيحيين التنظيم من أجل مجتمع أفضل؛ فى حين يرى اتجاه آخر ضرورة الحصول على المعرفة الدقيقة حول ما الذى يجعل من المجتمع أفضل.

وعلى سبيل المثال، سبّب ارتفاع الفقر فى الأرياف أزمة داخل الوعى البروتستانتى، وخلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر شكلت القناعات السائدة حول اقتصاديات الاعتماد على الذات، ودعه يعمل، مقترنة مع قدر محسوس من عدم الثقة أو الكراهية تجاه الطبقات الأمريكية العاملة الجديدة، وتجاه النقابات الخاصة بها، عقبة فى طريق التعامل مع المشكلات بأسلوب جذرى.

لذلك عندما يقرأ المرء فى جريدة كنيسة بارزة مثل «الأبرشى» فى عام ١٨٨٦م، إنه فى الرد على شغب العمال فى شيكاجو «بندقية جاهزة أو اثنتان، تنقلان على وجه السرعة إلى موضعهما وتجهزان جيدًا، فإنهما توفران - على الأرجح - الإصلاح الأكثر رحمة وكذلك الأكثر فاعلية»، فيبدو جليّا أن نوعية الرحمة البروتستانتية قد تمددت قليلاً، مع ذلك لم تتسم عواطف جريدة «الأبرشى» بالغرابة إذا وضعنا فى الاعتبار الموقف الاجتماعى والافتراضات الخاصة بمعظم البروتستانت فى تلك الأيام. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت المشكلات الجديدة للفقر فى المدن المكتظة بالأنشطة المختلفة فى غاية الشدة، وكان وعى البروتستانت الأمريكيين أرق من أن

يحتمل استخدام مثل تلك الحلول القاسية فى كل مكان، وغالبًا ما كان زعماء البروتستانت الذين يعلمون الكثير عن الظروف الحقيقية للفقراء فى تلك الفترة من الإيڤانجليكيين الذين سعوا لتحويل فقراء الأرياف إلى الإيڤانجليكية. قاد ذلك الإيڤانجليكيين إلى الأحياء الفقيرة وإلى المبانى التى يقطنها الفقراء، وأدى ذلك إلى اقتناع العديد منهم بالضرورة العاجلة لاقتران الوعظ بمد يد الإحسان المسيحى البسيط، مثل توفير الثلج للفقراء فى حر الصيف، والفحم فى برد الشتاء. قادت هذه المجهودات مجموعات من ذوى الحماس الإيڤانجليكى، وبخاصة مجموعات القداسة مثل جيش الخلاص، ومعهم أيضًا بعض من الإيڤانجليكيين الرواد من أصحاب «دوايت ل. موودى». شكلت حركة إرسالية الإنقاذ التى قدمت للفقراء والمهمشين الطعام والمأوى والإنجيل، واحدة من المؤسسات الجديدة والهامة فى تلك الفترة.

بالتدريج، استيقظ بقية البروتستانت على فداحة المشكلات الاجتماعية الجديدة التى تواجه الأرياف الأمريكية، وبدأوا فى تحمل مسئوليتها. يعود ذلك فى جزء منه إلى عمل الإصلاحيين ذوى الفاعلية مثل الذى للمهاجر الدانماركى «چاكوب ريس»، الذى هز كتابه «كيف يعيش النصف الآخر؟ (١٨٩٠م)» مشاعر الڤيكتوريين بما أوضحه للعيان بخصوص أحوال أحياء الفقراء فى مدينة نيويورك. ما هو أكثر أهمية أن المزاج السياسى للأمة كان قد بدأ فى التبدل، وكانت السيطرة خلال العصر «المطلى بالذهب» هى للنظرة المحافظة تجاه القضايا الاجتماعية. بحلول عام ١٨٩٠م، بدأت مع ذلك رياح التغيير فى الهبوب، وقد حملت الحركة الشعبية[١] التى تأسست بشكل رئيسى على حركة الفلاحين فى الجنوب، والغرب الأوسط الغربى (Western Midwest) اقتراحات متطرفة من أجل إصلاح اجتماعى قومى، وأصبحت الحركة الشعبية بحلول عام ١٨٩٦م قوة سياسية واسعة السلطة إلى درجة أنها قبضت بالفعل على زمام الحزب الديمقراطى بانتخاب المسيحى الفصيح «ويليام جينجز برايان» ناطقًا بلسان حزب الشعب. وانتخب المسيحى الغيور الآخر «ويليام ماكنيلى» الذى يمثل الوجهات السياسية الأكثر

(١) حزب الشعب الأمريكى الذى أنشئ عام ١٨٩١م، والذى دعا إلى سيطرة الدولة على السكك الحديدية، والحد من الملكية الخاصة للأراضى -المورد- المترجم.

محافظة، ولكن روح الإصلاح كانت تسرى فى الهواء. وبعد وفاة «ماكنيلى» فى عام ١٩٠١م وصعود «ثيودور روزفلت» بدأت وجهات النظر الإصلاحية «التقدمية» تسود حتى فى أوساط الطبقات المتوسطة، وفى خلال انتخابات عام ١٩١٦م اعتبر كلُّ مرشح رئاسى مهم نفسه «تقدميًا».

تولدت عن هذه التركيبة السياسية موجة جديدة من الاهتمام الاجتماعى داخل الكنائس، وتولد عنها كذلك أنواع جديدة من المقترحات المتعلقة بالإصلاح الاجتماعى. تزايدت «الخدمة الاجتماعية» التى تهتم بأعمال الإحسان التطوعية، وسادت بوجه خاص المقترحات التقدمية الجديدة من جانب المسيحيين من أجل المزيد من الإصلاح الشامل للنظام الاجتماعى والاقتصادى، وأصبحت مجموعة المقترحات التقدمية تعرف باسم «الإنجيل الاجتماعى»، ورفض بكل وضوح المناصرون للإنجيل الاجتماعى الفردية، وكذلك اقتصاديات «دعه يعمل» والتى سادت خلال العصر «المطلى بالذهب»، وأصروا بدلاً من ذلك على أن يكون للحكومة دور فعّال فى التخلص من الآثار شديدة الضرر لنظام الاقتصاد الحر. تطابقت المقترحات الإصلاحية الخاصة بهم بشكل جوهرى مع تلك التى للسياسيين «التقدميين» خلال تلك المرحلة. ومال مناصرو الإنجيل الاجتماعى لأن يجعلوا من هذه الاهتمامات الاجتماعية المحور لفهمهم للإنجيل. وإذا كان ليس من الضرورى التخلى عن المدخل الإيڤانجليكى التقليدى، فقد طوعه الناطقون بلسان الإنجيل الاجتماعى، وغالبًا ما صرحوا بأن التركيز على الإيڤانجليكية، قد جعل الإيڤانجليكية الأمريكية أخروية بشكل بالغ (لا تهتم إلا بإدخال الناس إلى الجنة)، وجعلوا منها فردية كذلك (تهتم بالتطهر الشخصى بدلاً من العمل على رعاية الجار). وقد توافقت هذه الصياغات بشكل كبير مع علم اللاهوت الليبرالى الصاعد فى تلك الأيام، والذى تميز بنظرة متفائلة تجاه الطبيعة البشرية، وبالتأكيد على الأخلاق، وبالأمل والرجاء تجاه تأسيس مبادئ المملكة فى القرن العشرين. لذلك، يبدو بعض الإيڤانجليكيين من ذوى التوجه التقليدى مثل «ويليام چينينجز برايان»، تقدميين من الناحية السياسية، فإن الإنجيل الاجتماعى جاء بصفة عامة تعبيرًا عن مبادئ السياسيين التقدميين، والليبراليين، وغير الإيڤانجليكيين من البروتستانت.

حدثت هذه الشراكة بين مبادئ السياسيين التقدميين وبين مبادئ اللاهوت الليبرالى، فى الوقت نفسه الذى أحاطت فيه أزمة عميقة بالقضايا اللاهوتية. نتج عن هذا التلازم بين الأزمتين اللاهوتية والاجتماعية أن بدأت پروتستانتية القرن العشرين الأمريكية فى الانقسام إلى قسمين رئيسيين، ليس من المحافظين والليبراليين فى علم اللاهوت فقط، ولكن بالتبعية من المحافظين والتقدميين سياسيًا. بدأ علم اللاهوت المحافظ يرتبط بالسياسيين المحافظين، بينما يرتبط علم اللاهوت الليبرالى بالسياسيين التقدميين. أطلق فى بعض الأحيان على هذا التطور الذى بدأ تدريجيًا مسمى «الانتكاس العظيم» فى الإيڤانجليكية الأمريكية. هناك وإلى وقتنا هذا من التاريخ الأمريكى أعداد يعتد بها من الإيڤانجليكيين الإحيائيين الذين دائمًا ما كانوا فى المقدمة من الجهود الإصلاحية الاجتماعية والسياسية (مناهضة الرق على سبيل المثال)، وبرغم ذلك فدائمًا ما كان العديد الآخر من الإيڤانجليكيين من المحافظين اجتماعيًا. مع ذلك، فقد تضاءلت بشدة المشاركة الإيڤانجليكية فى الإصلاحات التقدمية فى القرن العشرين، باستثناء فى بعض الحملات الصليبية الأقدم مثل التى على الخمور. ومع تزايد الحديث أكثر وأكثر من جانب ليبرالىى علم اللاهوت عن الآثار الاجتماعية للإنجيل، تحدث الإحيائيون الإيڤانجليكيون بشكل أقل.

بدأ هذا الانقسام حول كل من القضايا اللاهوتية والاجتماعية فى الوضوح خلال العقدين الأولين من القرن. كانت روح الحملات الصليبية وكذلك الحماسة من أجل وحدة البروتستانت القائمة على الفعل ما زالت سائدة، وقال أحد الناجين من تلك المرحلة ـ على الرغم من التوترات العميقة ـ: «كانت السنوات العشر أو الخمس عشرة السابقة على الحرب ـ بطريقة خلافية ـ تمثل نوعًا من الهدنة من عند الله». ولم يتضح ذلك بأكثر من ولادة مجلس الكنائس الفيدرالى عام ١٩٠٨م. احتوت تلك المؤسسة ذات العمل التعاونى بين البروتستانت بداخلها على العديد من الدوافع نفسها التى كانت توحد البروتستانت فى «جمعية المساعى المسيحية»، ومدارس الأحد، وحملات الحظر. وحتى بلوغ هذه النقطة لم تكن المسائل الاجتماعية تثير الانقسام بعد بهذا الوضوح، بحيث تمنع الوكالة المسكونية الجديدة «مجلس الكنائس

الفيدرالى» من التركيز أولاً على القضايا الاجتماعية. لقد كانت هذه القضايا فى الواقع تحظى بالأولوية فى قائمة العمل الخاصة بها، وذلك حين اجتمع هذا الكيان التعاونى الجديد عام ١٩٠٨م.

جلب هذا التركيز الاجتماعى الشديد الانتقادَ من جانب المحافظين الذين صرحوا بأن الكيان المسكونى يفقد رؤية الهدف المركزى للإنجيل، وهو فوز النفوس بالمسيح. وفى استجابة لذلك، وازن مجلس الكنائس الفيدرالى عام ١٩١٢م لجنته الخاصة بالخدمة الاجتماعية بأن أضاف لجنة تختص بالإيڤانجليكية، وقد شهد العام نفسه بلوغ واحدة من آخر وأعظم الحملات الصليبية فى تلك الفترة إلى الذروة، وهى «حركة تقدم الرجال والدين». عمل المجهود الهائل لهذه الحركة على تعبئة الرجال والفتيان للخدمة الاجتماعية، وكسب النفوس. كان التخطيط لهذه الحملة مبالغًا فيه، ولم ترق الحملة إلى التوقعات.

مع ذلك، تطورت مشكلة أعمق. كان الإيڤانجليكيون الذين شددوا على الإحيائية، والآخرون الذين أكدوا على الإصلاح الاجتماعى، يقتربون أكثر وأكثر من تشكيل حزبين، وظهر ذلك جليًا فى واقعة أخرى حدثت عام ١٩١٢م. كان «بيلى صاندای» الذى قد بدأ يتسلق سلم الشهرة بوصفه آخر زعامات الإيڤانجليكية الأمريكية، يدير حملة إحيائية فى كولومبس أوهايو، وعقب الحملة وجّه «واشنطن جلادين» وهو كاهن أبرشى فى كولومبس وأحد الناطقين البارزين باسم الإنجيل الاجتماعى، نقدًا مريرًا «لصنداى» فيما يتعلق بتقنياته الخطابية التى تثير المشاعر، وكذلك لبشارته بخلاص النفوس، واندلع نقاش ملتهب فى الصحافة الدينية. فى حين أن «صنداى» لم يلق بالاتهام على الخدمة الاجتماعية، لكنه ألقى باللائمة على التوجهات الحالية؛ لأنها «تحاول أن تخلق دينًا من الخدمة الاجتماعية، مع ترك عيسى المسيح خارجه»؛ وقد ادعى بأن ذلك هو السبب وراء انهيار «حركة تقدم الرجال والدين»، وقال: «لقد تلقينا ما يكفى من هذا الهراء للخدمة الاجتماعية عديمة الرب».

كانت هناك مشكلات أكثر حدة تكمن خلف هذه الاتهامات، بحيث لا يمكن تجاهلها لزمن أطول من ذلك. لقد حافظت الإرادة الخيرة، والفاعلية، على مظهر

من الوحدة داخل الطائفة البروتستانتية الغالبة، واعتبروا أنه من الأفضل الابتعاد بالقضايا اللاهوتية والفكرية بعيداً عن الاهتمام العام، وفى الواقع لم يكن معظم رواد الكنائس على وعى بالعمق الذى أصبح عليه الشرخ. وظل النجاح والتقدم هما سمتى المزاج السائد مع التأكيد عليهما بالكثير من البلاغة المتعلقة بالوحدة مقترنة بالفاعلية، وكذلك بقرع الطبول من أجل الحملة الصليبية الأخيرة. ومع ذلك، كان على البروتستانتية الأمريكية فى آخر الأمر أن تدفع ثمن تنحيتها جانبًا للمشاكل اللاهوتية الحادة.

وفى الحقيقة، كان هناك فيضان من الخلافات المؤكدة التى وصلت إلى ما لا يمكن تجاهله. يتطلب فهم ذلك، أن نلقى نظرة أكثر قربًا على بعض التوجهات الجديدة فى تلك الأيام.

التغيرات الجديدة واستجابات المحافظين (١٨٦٥ - ١٩١٧م)

كانت بعض التصدعات العميقة للغاية تنمو تحت سطح الوحدة داخل الطبقة المتوسطة للبروتستانت البيض. مثل الرجفات التى تنذر بانفجار البركان، لم تدل بشكل كامل على الاضطرابات العنيفة التى تغلى تحت السطح؛ لذلك كان المزاج السائد بين البروتستانت فى تلك الفترة الزمنية ما بين الحرب الأهلية إلى الحرب العالمية الأولى هو من نوع الرفاهية والتقدم والثقة بالنفس. مع ذلك، كانت حقيقة الأمر أن الاختلافات الشاسعة فى فهم الإنجيل فى تفاقم، ووصلت هذه الاختلافات الهائلة إلى أقصاها، مما أملى على المؤرخ «سيدنى ستروم» أن يضعها على أنها «أقصى خلاف أصولى يدمر الكنائس منذ زمن الإصلاح الدينى».

الليبرالية والحداثة

ربما تكون أهم نقطة من أجل فهم الليبرالية اللاهوتية أو اللاهوتية الحديثة (عادة ما يستخدم التعبيران تبادليًا) تكمن فى أنها حركة قامت لإنقاذ البروتستانتية. ومثلما رأينا، فإن أجيال البروتستانت الذين عاشوا بين عامى ١٨٦٥ و ١٩١٧م قد واجهوا أشد التحديات جوهرية لعقيدتهم وإيمانهم. فرضت الداروينية، وكذلك النقد المتعاظم، تحديهما لسلطان الكتاب المقدس، كما أحدثت الأساليب الجديدة للتفكير

التاريخى والاجتماعى، ولعلم النفس الفرويدى ثورة فكرية على كل مستوى على وجه التقريب، كما أدت التغيرات الاجتماعية المكثفة ـ علاوة على العلمنة المتسارعة ـ وبخاصة فى العلم وفى التعليم العالى إلى تآكل السيطرة العملية للبروتستانتية.

وبتعبيرات شخصية، عنى ذلك أن كثيراً من الناس الذين قد نشأوا على القبول غير القابل للنقاش بالسلطة الكاملة للكتاب المقدس، وعلى اليقين بصدق الوصايا الإيڤانجليكية التى وجدوا أنفسهم يحيون بها، أصبحوا فى عالم لا يعتبر مثل تلك المعتقدات مقبولة فكريًا. مثل ذلك نموذجيًا التواريخ الشخصية لزعماء الحركة الليبرالية. وحيث إنهم تربوا فى بيوت إيڤانجليكية موسرة، فقد ارتبطوا بصلات وثيقة مع الإيمان المسيحى على الرغم من عدم مرورهم بتجارب تحول درامية. عندما دخلوا الجامعات، واجههم الاختيار الأشد صعوبة فى إمكانهم التشبث بالإيڤانجليكية على حساب التضحية بالمعايير الجديدة لاحترام الفكر، وبدا أنه يتوجب عليهم إما أن يهجروا المسيحية، وإما أن يعدلوا منها لتتواءم مع معايير العصر، وبدا للعديد منهم أن الاختيار الثانى هو بديل الحياة الوحيد. وقد توجب على الكثير من الناس الذين يعمرون الكنائس أن يتشاركوا فى هذه المشاعر الوجدانية الليبرالية. وبحلول العقود الأولى من القرن، كانت الليبرالية، أو الحداثة كما أصبح يُطلق عليها قد ترسخت داخل جميع المعاهد اللاهوتية البارزة على وجه التقريب. مال ما يزيد على النصف من الإصدارات البروتستانتية ناحية الحداثة، واحتل الليبراليون ثلث منابر الأمة.

إن حركة بمثل هذا الحجم، وهى قد ألقت بثقلها وراء التحرر من التراث (ومن هنا جاء تعبير «ليبرالية»)، ووراء التواؤم مع العالم الحديث (ومن هنا جاء تعبير «الحديثة») فلا مناص لها من احتضان التنوع الهائل. مع ذلك، فيمكن الحصول على صورة جيدة للمظهر الخارجى عن طريق النظر إلى استراتيجياتها النموذجية الثلاث من أجل الحفاظ على المعتقد والإيمان فى وجه الهجمة الضارية للفكر الحديث.

تأليه المسار التاريخى

كانت الطريقة الأولى للاستجابة إلى التحديات الفكرية من جانب الليبراليين هى تأليه العملية التاريخية. وللتبسيط، يعنى ذلك أن الله قد تجلى بذاته داخل التاريخ، وقد تجسد داخل التطور الإنسانى. وقد جسد المسيح الذى يقف فى مركز علم اللاهوت الليبرالى، وكذلك فى موقع المركز من التاريخ، هذه العلاقة الوثيقة بين المقدس وبين التاريخى. كانت مملكة المسيح هى التجلى المستمر لقدرة الله على تغيير العلاقات الإنسانية. وكان الكتاب المقدس هو سجل الممارسة الدينية لشعب قديم، ولم يكن موسوعة للعقائد، لكنه كان بدلاً من ذلك نموذجًا قديمًا للممارسة الدينية. ولا ينبغى فى وقتنا الحالى اتباع هذا النموذج بمحاكاة تقليدية، لكن أفضل مبادئه قد تطورت مع توفير العلم والحضارة المعاصرة لفهم أفضل لأفعال الله الترويضية، وقد تحدد التقدم الإنسانى بذلك ـ وبخاصة على الصعيد الأخلاقى ـ بتطور مملكة المسيح.

كانت إحدى جماليات إعادة قراءة التراث المسيحى لأعضاء الكنيسة فى نهاية القرن، تكمن فى أن هذه الرؤية من المسيحية تمتعت بالحصانة ضد معاول الهدم التاريخية والعلمية الحديثة. فقد قدمت الداروينية لهذا الجيل معيار التفكير فى كل شىء تقريبًا، ومثلما شرح «داروين» التطور البيولوچى من خلال العمليات الطبيعية، فقد قدمت تفسيرات مماثلة لحد كبير للأسلوب نفسه مع كلٍّ من التاريخ والمجتمع. وقد ادّعت العلوم الاجتماعية، وكذلك التاريخية العلمية الجديدة، بأن الديانات الإنسانية كانت نتاجًا للارتقاء الاجتماعى. كانت الديانات تطورات طبيعية فى مجهودات الجنس البشرى من أجل التوافق مع تهديدات البيئة المحيطة، وترتب على ذلك أن اعتبر الكتاب المقدس مثله مثل أى كتاب دينى، نتاجًا لممارسات الشعب العبرى. مع ذلك، كان لدى الليبرالية المسيحية الجديدة إجابة صادقة على هذا التحدى: إن تاريخ الممارسات الدينية للناس هو بالضبط أسلوب الله فى العمل. لا يحتاج الكتاب المقدس لبرهان تاريخى أو علمى على دقته لكى ينظر إليه بوصفه ترجمة مخلصة للمدركات الدينية للشعب العبرى. لكن خلال

تاريخهم، على الرغم من الكثير الذى تخلله من الفعل البشرى[1]، يجد المرء أناسًا قد فهموا عمل الله مع البشرية بأسلوب متفرد، وقد يستفيد المرء كثيرًا من هذا المثال حتى بدون أن يتبعه بأسلوب المحاكاة التقليدية. لا يمثل التاريخ العلمى، ولا نقد الكتاب المقدس، أى تهديد لمثل ذلك الإيمان.

التأكيد على الأخلاقى

كان الدفاع الثانى من جانب الليبرالية أو الحداثة [المسيحية]، والذى حفظها من الهجوم هو الأخلاق. كانت الحياة هى الاختبار المحورى للمسيحية، وليست العقيدة. يمكن إنقاذ المسيحية عن طريق التشديد على الأخلاقى.

وقال الليبراليون: «ذلك هو قلب تعاليم المسيح». لقد شددت الكلفينية وكذلك علوم اللاهوت التقليدية بشكل بالغ على العناصر القانونية لعلاقة الله مع الإنسانية. وعلى النقيض من ذلك، فقد أكد المسيح على أبوة الله للبشر وعلى أخوة البشر، ومهما يسقط أمام ضربات النقد المدمرة، فإن أخلاقيات المسيح سيكتب لها البقاء.

وبتعبيرات عملية، ظهر هذا التشديد الأخلاقى فى تنويعات مختلفة. شدد معظم الليبراليين على التعليم المسيحى، مثل الذى فى مدارس الأحد، حيث السيادة للدروس الأخلاقية. كان ذلك التشديد متسقًا مع الخبرات الشخصية للعديد من الليبراليين الذين تربوا تدريجيًا على حب الإيمان من خلال الطبيعة المسيحية، بدلاً من حبها من خلال خبرة تحول متطرفة. ومن بين بعض الليبراليين الأوائل مثل «هنرى وارد بيتشر» أو «فيليبس بروكس» فإن مضمون أخلاقياتهم عادة ما عكس الفردية الخاصة بتلك الأيام. وفى الفترة التقدمية، أعاد القادة الليبراليون مثل «واشنطن جلادين»، و«والتر راوشنبوخ» اكتشاف وتطوير رسالة الإيمان الاجتماعية. وعلى المستوى الشعبى، فقد ظهرت هذه الاهتمامات الاجتماعية بشكل جيد فى كتاب «تشارلز م. شيلدون»: «فى خطاه (١٨٩٦م)» وهى رواية عن حصول الانتباه لأبرشية من خلال السؤال الجدى: «ما الذى كان المسيح سوف

(١) يقصد أن الأجزاء التى يصعب تصديقها فى الكتاب المقدس، جاءت بسبب التدخل البشرى فيه.

يفعله؟» . وقد بيع من كتاب «شيلدون» الملايين من النسخ خلال العقود التالية، ولم يكن ذلك مؤشراً بسيطًا على النفوذ الذى يتمتع به التحدى الأخلاقى المسيحى بالنسبة للأمريكيين فى ذلك الوقت .

مركزية المشاعر الدينية

كان العنصر الثالث الذى له الانتشار العريض فى دفاع الليبرالية عن المسيحية هو الإيمان الراسخ بمركزية المشاعر الدينية فى المسيحية . تمسك الليبراليون تأسيًا بعالم اللاهوت الألمانى «فريدريش شلاير ماخر» (١٧٦٨ - ١٨٣٤م) بأن الأساس فى الدين هو الإحساس بالاعتماد المطلق [على الله] . فمع التشديد على الأخلاقيات، فسوف تُقارن المشاعر الدينية مع دين العقل، أو مع العقيدة، أو مع التفسيرات الحرفية للكتاب المقدس . علاوة على ذلك، فلن يقدر النقد العلمى والتاريخى على أن يمس الحدس القلبى «الذى لا يعرف العقل عنه شيئًا» . واستطاع المسيحيون الليبراليون باعتمادهم على المشاعر الرومانتيكية والمثالية فى تلك الأيام، أن يتركوا العلم يحكم بحرية فى مجاله الخاص، لكنهم أصروا على وجود مجال الحقيقة الدينية التى لا يمكن للعلم الوصول إليها .

ردود الأفعال المحافظة

بذلك كان الليبراليون والحداثيون يحصنون الأوجه المهمة لإرثهم المسيحى ضد تحديات الفكر الحداثى، كما كانوا يتعرضون فى الوقت نفسه لمعارضة لا يُستهان بها من الضفة الأخرى، من ناحية المحافظين الذين رأوا الخيانة فى احتضانهم للحداثة . وفى أول الأمر، وبخاصة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر، تمحورت الخلافات المؤكدة حول الداروينية . لقد وجهت نظرية داروين الخاصة بالتطور عن طريق الانتقاء الطبيعى ضربات قاسية إلى البروتستانتية الإيفانجليكية؛ حيث إنها قوضت من شأن الدفاعات عن الإيمان فى نقطتين حاسمتين، الأولى: بتداعياتها التى أوصلت إلى التساؤل عن مدى دقة الكتاب المقدس، والذى كان الشاهد الأقصى أهمية فى «البراهين» على المسيحية . الثانية: فقد قلبت الداروينية بشكل كامل المفاهيم المتعلقة بعلاقة العلم بالإيمان المسيحى .

وفى منتصف القرن التاسع عشر، بنى المسيحيون الأمريكيون الاعتذاريون دعواهم بشدة على أساس من المجادلة ينطلق من تصميم البناء الكونى، وقالوا: إن الثورة العلمية فى القرنين الماضيين قد كشفت عن بعض معجزات الله فى التصميم المعقد والشديد العظمة للكون. وجادلوا بأنه من قبيل عدم الاتساق العقلى أن نؤمن بأن هذا النظام البالغ التعقيد والانضباط يفتقد إلى الصانع البارع. مع ذلك، فقد برهنت الداروينية على النقيض التام. إن التصميم الظاهر فى الكون يجد التفسير الأفضل له عن طريق الصدفة، وبغير حاجة إلى بصيرة بوجهة الكون، فقد طورت السلالات ببساطة هياكلها المعقدة والمعجزة بسبب من ضروريات البقاء داخل كون عدوانى. وأصبح العديد من العلماء فى وقتها يدعون بأن النظام والتصميم الظاهرى يمكن تفسيرهما بشكل أفضل بدون إشارة إلى الله.

تنوعت ردود أفعال البروتستانت تجاه الداروينية بشكل محسوس، فإذا كانت الداروينية متعلقة بالتطور الحياتى، فإن العمليات التى أظهرتها يمكن تصنيفها تحت مظلة التدبير الإلهى، ويمكن للمسيحيين القول مثلما فعل «چون فيسك» صاحب الشعبية قائلاً: «النشوء والارتقاء هو أسلوب الله فى صنع الأشياء». وقد تبنى الليبراليون والحداثيون وجهة النظر هذه، وقد فعل بعض المحافظين الأمر نفسه ـ على الرغم من رفضهم المعتاد لنظرية النشوء فيما يخص البشر ـ لعدم تطابقها مع سفر التكوين. رفض المحافظون الآخرون نظرية النشوء والارتقاء بكاملها لكونها مناقضة للقراءات الحرفية للنص المقدس، وبسبب أن الكثيرين من المؤمنين بداروين، بمن فيهم داروين نفسه، قد وظفوا ادعاءاتهم حول علم الحياة من أجل دعم نظرة كونية ينتفى فيها وجود الله. وعلى سبيل المثال، فقد وضع «تشارلز هودج» من معهد پرنستون اللاهوتى كتابًا سماه: «ما هى الداروينية؟ (١٨٧٤م)»، وكانت إجابته: «هى الإلحاد».

ولأن آراء المحافظين تنوعت، فنادرًا ما استخدمت وجهات النظر حول الداروينية كمقياس واختبار للإيمان بين التيار الرئيسى للپروتستانت فى أواخر القرن التاسع عشر. كان الجنوب هو الاستثناء الرئيسى، حيث ظل عقب هزيمته فى الحرب الأهلية على تمسكه بالپروتستانتية المحافظة من فترة ما قبل الحرب، وعلى تشككه تجاه كل ما هو جديد.

كانت القضية الأكبر سواء فى الجنوب أم فى الشمال، هى مصداقية الكتاب المقدس، حيث ترتكز على هذا الأساس سلطة مجمل النظام الإيمانى لهم. إذا لم يكن الكتاب المقدس صادقًا، فعلى أى أساس عندئذ ترتكز البروتستانتية وهى دين النص المقدس؟ وماذا لو كانت هناك أخطاء علمية وتاريخية فى النص المقدس؟ وألا تستدعى مثل هذه الهنات التساؤلات حول ادعاءات الكتاب المقدس الأخرى؟ ومع كلٍّ من الداروينية وكذلك الانتقادات العميقة المتقنة التى تقترح وجود أخطاء حقيقية فى النص المقدس، فقد أصيب العديد من المؤمنين من جيل نهاية القرن بالاهتزاز العميق.

وقد انقسم البروتستانت المحافظون حول هذه الأسئلة الملحة مثلما فعلوا فى حالة الداروينية. لم يقدم البعض منهم أية تنازلات البتة تجاه التحليل التاريخى الجديد للكتاب المقدس. كان الناطقون بلسان هؤلاء المحافظين هم علماء اللاهوت من المعهد اللاهوتى المشيخى المحافظ فى پرنستون. ولقد حددوا بعناية الموقف الكنسى التقليدى الواجب اتخاذه تجاه الكتاب المقدس، وأصروا على أن النص الأصلى الذى أوحى به الروح القدس «لا يشوبه الخطأ على الإطلاق». وقد أطلق على هذه العقيدة مسمى «العصمة»، ولم يكن ذلك من اختراعات نهاية القرن التاسع عشر؛ فقد قال وافترض الكثير من المسيحيين ذلك من قبل. لكن الحقيقة أن البعض من البروتستانت المحافظين أصبحوا يجعلون من صحة الكتاب المقدس عقيدة مركزية، وفى بعض الأحيان يجعلونها اختباراً واقعيّا للإيمان، مما يشير إلى أن التهديدات العملية والتاريخية الجديدة كانت تجبر كل شخص على إضافة الدعامات لما يعتبره خط الدفاع الحرج للكتاب المقدس.

أشعل صعود قضيتى الصحة والدقة التاريخية للكتاب المقدس فتيل النقاش الحاد. كانت القضية البالغة الإثارة هى الخاصة بالأستاذ «تشارلز أ. بريجز» (١٨٤١ - ١٩١٣م) من معهد علم اللاهوت الاتحادى فى نيويورك، وهو مؤسسة مشيخية. قام «بريجز» فى خطاب تدشينى لولايته عام (١٨٩١م) بالهجوم المباشر على عقيدة «الصحة» التى أوضحها بجلاء «أرشيبالد الكسندر هودج» (١٨٢٣ - ١٨٨٦م)، وكذلك «بنيامين بريكنريدج وارفيلد» (١٨٥١ - ١٩٢١م) عالما اللاهوت من پرنستون. وعلى الرغم من تقليدية «بريجز» فى معظم لاهوته، فقد أصر على أنه

ينبغى على المسيحيين أن يواجهوا بكل شجاعة حقيقة أن الكتاب المقدس يضم بين دفتيه الكثير من الأخطاء العرضية غير المحورية بالنسبة إلى تعاليمه.

وقد تعرض «بريجز» للمحاكمة بسبب ذلك داخل الكنيسة المشيخية، وأوقف عن الكهانة. كانت النتيجة أن ترك هو وبقية معهده الكنيسة المشيخية.

وما بين عامى ١٨٧٨، و١٩٠٦م شهدت كل طائفة بروتستانتية رئيسية محاكمة واحدة على الأقل بسبب الهرطقة، وعادة ما يكون المهرطق أستاذًا معهديًا. ومثل حالة «بريجز»، فلم تفعل الجهود المحافظة إلا القليل تجاه كبح جماح التوجهات الليبرالية. وبحلول بواكير القرن العشرين دانت السيطرة على المعاهد البروتستانتية فى الشمال لليبراليين. وعلى سبيل المثال، فقد تحولت فى ذلك الوقت مدرسة القداسة (المعمدانية) فى جامعة شيكاجو من ركيزة أمامية للإيڤانجليكية المعمدانية المحافظة باعتدال، إلى واحدة من مراكز علم اللاهوت الليبرالى الرائدة فى العالم.

على الرغم من ذلك، فإن التنافس بين الليبراليين والمحافظين لم يمس بشكل مباشر الغالبية من البروتستانت الأمريكيين العاديين. وقد قدر مراقب معمدانى مخضرم أن هذا الحزب المحافظ باعتدال «ما يزال يشكل الغالبية الساحقة» من المعمدانيين بطول وعرض البلاد. وقد اعتقد أن ما يقارب خمسة وتسعين فى المائة من المعمدانيين لم يكونوا «على وعى بأى تغير مهم فى علم اللاهوت، أو بانحراف عن العقيدة المعمدانية القديمة». وحتى الزعامة المحافظة للمعمدانيين فغالبًا ما تراجعت عن اتخاذ مواقف صارمة.

وعلى سبيل المثال فإن «أغسطس هـ. سترونج» (١٨٣٦ - ١٩٢١م) رئيس معهد اللاهوت بروتشستر، وعلى الرغم من أنه محافظ بلا جدال، فإنه قد أنكر بكل وضوح فى عمله: «علم اللاهوت المنهجى» والذى يستخدم على نطاق واسع، الاعتراف بعقيدة صحة الكتاب المقدس، وقال: ينبغى أن تكون الخطوط الأساسية الواجب التمسك بها فى الدفاع المحافظ عن المسيحية، هى الممارسة الدينية الشخصية والأخلاقية العملية. وقد أقام «إدجار يونج مولينز» (١٨٦٠ - ١٩٢٨م) وهو رئيس معهد اللاهوت المعمدانى الجنوبى فى «لويزڤيل» كما أنه من خصوم الليبرالية، موقفه على نفس الخطوط العملية والتجريبية الدفاعية. . وعلى الأرجح

فإنه بالنسبة إلى معظم الأمريكيين من البروتستانت الجالسين على المقاعد داخل الكنائس، وبخاصة داخل الطائفتين الكبيرتين، وهما: الميثودية والمعمدانية، فإن مثل هذه التأكيدات كانت كافية للوقوف ضد الشائعات الخاصة بالهجوم الفكرى.

تجديدات محافظة

لم يكن الليبراليون والمعاصرون من بروتستانت تلك المرحلة هم فقط الذين واجهوا التحديات التى فرضتها تلك الأيام، باستحداث تجديدات جوهرية. لقد ساهمت ثلاث حركات مهمة أخرى - جميعها من المحافظين، بشكل جوهرى فى معظم نقاط علم اللاهوت، وجميعها فعّالة من جهة الإحيائية - فى تقديم اتجاهات حديثة من أجل إعادة تجديد البروتستانتية.

تدبيرية ما قبل الألفية

كانت عقيدة التدبيرية، أو «تدبيرية ما قبل الألفية» هى ثمرة تجدد الاهتمام بتفاصيل نبوءات الكتاب المقدس عقب الحرب الأهلية. كان أصحاب عقيدة «ما قبل الألفية» يرفضون عقيدة «ما بعد الألفية» السائدة التى تقول بقيام مملكة المسيح من ثنايا التقدم الروحى والأخلاقى فى ذلك العصر، وتحدث أصحاب عقيدة «ما قبل الألفية» عن انحطاط الكنائس والثقافة، وعن أن المسيحيين لن يروا مملكة المسيح أبدًا إلا بعد عودة المسيح شخصيًا ليحكم من القدس. وقد وفروا بذلك تبريرًا جديرًا بالتصديق للسقطات التى كانت تواجهها الكنائس. لقد تنبأ الكتاب المقدس بهذه السقطات. ودائمًا ما كان «العالم المسيحى» أو «الحضارة المسيحية» ذا مثالية وهمية، وأصبح ذلك واضحًا الآن من خلال علمنة الثقافة، وكذلك من خلال الارتداد (الليبرالية) داخل الكنائس نفسها. ومع هذا، فإن الكتاب المقدس يوفر أيضًا الأمل الملموس بعودة مملكة الرب.

إحدى الخصائص الفريدة لعقيدة «ما قبل الألفية» تكمن فى أنها عرضت فكرة أن الكتاب المقدس قدم التفسير لكل التاريخ من خلال سبع مراحل أو عصور. وقد اختبر الله الإنسانية فى كل واحدة من هذه المراحل من خلال خطة مختلفة

للخلاص. وقد فشلت الإنسانية فى جميع الاختبارات، وكان العقاب الإلهى هو نهاية كلٍّ منها. انتهى النظام الأول بسقوط الإنسانية فى الخطيئة وبالطرد من جنة عدن، وانتهى الثانى بالطوفان، والثالث ببرج بابل، . . وهكذا. ونحن نعيش فى المرحلة السادسة أو عصر الكنيسة، ونتجه أيضًا تجاه كارثة ومن ثم تدخل إلهى. ثم فى النهاية، وبعد سنوات فتنة سبع من الحروب والفواجع، سيقوم المسيح بتأسيس مملكة فعلية فى القدس، وسوف يحكم منها العالم لمدة ألف عام.

ويشدد التدبيريون - أصحاب عقيدة «ما قبل الألفية» - على أن آراءهم تتأسس على القراءات الحرفية للنص المقدس، وبخاصة على نبوءات الكتاب المقدس. وعلى سبيل المثال، فقد توقعوا العودة الحرفية لليهود إلى إسرائيل، مثلما تنبأ الكتاب المقدس. وبسبب من تشديدهم على التفسيرات الحرفية للنبوءات، فقد أصبح التدبيريون إحدى الجماعات الأشد إصرارًا على جعل الاعتقاد فى عصمة الكتاب المقدس علامة الإيمان الصحيح.

جاء هذا النوع من عقيدة «ما قبل الألفية» من انجلترا، وانتشر فى أمريكا أولاً من خلال مؤتمرات «النبوءة» حيث يتم الانكباب على دراسة الكتاب المقدس. كانت المؤتمرات الصيفية على وجه الخصوص، وهى شكل جديد وشعبى للإجازات فى زمن السفر بالقطارات، وسيلة فعالة فى نشر ذلك. ما هو أكثر أهمية، أن «دوايت ل. مووذى» قد تعاطف مع الخطوط العريضة لعقيدة التدبيرية، واتخذ أقرب مساعديه من زعماء هذه العقيدة من أمثال «روبين أ. تورى» (١٨٥٦ - ١٩٢٨م)، و«چيمس م. جراى» (١٨٥١ - ١٩٢٥م)، و«سى. آى. سكوفيلد» (١٨٤٣ - ١٩٢١م)، و«ويليام ج. إيردمان» (١٨٣٣ - ١٩٢٣م)، و«إيه. سى. ديكسون» (١٨٥٤ - ١٩٢٥م)، و«إيه. چيه. جوردون» (١٨٣٦ - ١٨٩٥م). كان هؤلاء الرجال من الإيڤانجليكيين النشطاء الذين روجوا لعقد مؤتمرات الكتاب المقدس وغير ذلك من الجهود الإرسالية الإيڤانجليكية. كما أضافوا الاستمرارية لحركة التدبيرية عن طريق تولى رئاسة معاهد الكتاب المقدس الجديدة، مثل معهد مووذى للكتاب المقدس (١٨٨٦م)، ومعهد لوس أنچيلوس للكتاب المقدس (١٩٠٧م)، وكلية فيلادلفيا للكتاب المقدس (١٩١٤م).

كتاب الأصول

وسرعان ما تمددت هذه الشبكة من المعاهد المترابطة؛ لتصبح النواة لحركة أصولية ذات أهمية كبرى خلال القرن العشرين. وفى الحقيقة فإن زعماء عقيدة التدبيرية هم الذين نظموا بكل نشاط هذه المجهودات المضادة للحداثة. لقد أشرفوا بشكل متميز على نشر سلسلة كتاب «الأصول» ذى الاثنى عشر جزءاً، والذى انتشر توزيعه بشكل هائل فيما بين الأعوام ١٩١٠ إلى ١٩١٥م. جاء تمويل هذه «الشهادة بالحق» المحافظة من «ليمان وميلتون ستيوارت»، وضمت كتابات من نوعيات متعددة من الناطقين باسم معاداة الحداثة، وكان من بينهم الكثيرون من غير التدبيريين أمثال علماء اللاهوت من پرنستون، وكذلك من المعتدلين مثل «إى. واى. مولينز».

كانت عقيدة التدبيرية فى ذاتها معادية للحداثة بشكل صاعق. كانت تبدو فى العديد من عناصرها مثل صورة معاكسة للحداثة، وقد اتسمت الحداثة بالتفاؤل فيما يخص الثقافة المعاصرة، فى حين اتسمت التدبيرية بالتشاؤم تجاهها. الأكثر أهمية أن كلاً منهما قد تمحور حول تفسير: ما علاقة الكتاب المقدس بالتاريخ؟ قدمت الحداثة تفسيراً للكتاب المقدس من خلال عدسة التاريخ الإنسانى، فى حين قدمت التدبيرية تفسيراً للتاريخ شموليّا من خلال عدسة النص المقدس. وفى حين قامت الحداثة بالتركيز على الطبيعى، حيث ترى القوى الاجتماعية بوصفها فى غاية الأهمية من أجل فهم الدين، فإن التدبيريين أبرزوا ما وراء الطبيعة، جاعلين من التدخل الإلهى الحل المباشر للمشكلة المعاصرة الخاصة بتفسير التغير التاريخى.

حركة القداسة

يمكن أن نفهم حركة إيڤانجليكية ثانية كبرى ـ حركة القداسة ـ بوصفها معاكسة لصياغة معاصرة أخرى ـ التركيز على الأخلاق. عندما شدد الليبراليون على الأخلاقى، كانوا يتحدثون بشكل نموذجى عن الميول الطبيعية للخير داخل جميع البشر. يمكن للمسيحية تهذيب هذه الميول إلى أن تؤتى ثمارها. أبرزت حركة القداسة الأخلاقى، ولكن بتشديد معاكس. كان عمل الروح القدس القادم من

وراء الطبيعة هو جوهر التغلب على الميول الطبيعية. علاوة على ذلك، وفى حين تحدث الليبراليون عن التهذيب التدريجى أو عن التعليم المسيحى، فقد أصر مناصرو القداسة على أنه لا وجود لشىء يؤدى إلى تطهير القلب من الخطيئة، إلا العمل الدراماتيكى [المثير] من قِبَل الروح القدس.

ولذلك كان معلمو القداسة يتميزون عن معظم الإيڤانجليكيين الإحيائيين بإصرارهم على تجربة التحول الدرامى، وكذلك فى الوقت نفسه على حتمية «النعمة الثانية» التى يعتق الروح القدس بها المرء من سطوة الخطيئة.

كانت حركة القداسة تنويعة من الحركات التى نمت خارجة من تعاليم «چون ويزلى» [مؤسس الكنيسة الميثودية]. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت تعاليم القداسة تنمو بقوة فى العديد من الأشكال المتنوعة، وغالبًا ما تجاوزت حدود المذهب الميثودى ذاته. وعلى مشارف النصف الثانى من القرن أخذت هذه التعاليم بزمام القيادة إلى تشكيل طوائف جديدة. ومع التشديد على الواجب الأخلاقى، لم تكن جماعات القداسة تهتم فقط بالتطهر الذاتى، ولكن تهتم أيضًا بالمسئوليات تجاه الفقراء. احتلت منظمات القداسة موقع القيادة فى الغوث البروتستانتى مع النصف الثانى من القرن، وكانت منظمة «جيش الخلاص» هى الأكثر شهرة من بينها فى تقديم العون إلى الفقراء، وتقديم الإيڤانجليكية إلى المشردين والمنبوذين.

جماعات القداسة المنفصلة غالبًا ما تكون من جماعات أكبر ومن طوائف تحظى باحترام أشد، وهى تكسب ـ فى كثير من الأحيان ـ المتحولين القادمين من أناس رقيقى الحال من طبقتى العمال والمهاجرين، وتميل إلى حيازة قاعدة اجتماعية اقتصادية أكثر تواضعًا من الجماعات الأقدم مثل الأسقفية والأبرشية والمشيخية، بل وحتى المعمدانيين والميثوديين. تبرز هذه اللازمة صورة عامة داخل حياة الكنيسة المعاصرة: كلما ازداد ثراء المجموعة، كلما كانت خشونة العيش أقل وجوبية. الليبراليون البروتستانت بوصفهم جماعة، كانوا من ذوى المستوى الاجتماعى المرتفع أكثر من أى كيان پروتستانتى آخر، وكانت الفضيلة بالنسبة لهم تتمثل فى أفضل تطورات الحضارة المعاصرة، وفى حياتهم ذاتها. يقف الطائفيون التقليديون

فى موقع ما من المنتصف حيث يتبنون توجهات متباينة بشأن مقدار التخلى عن الدنيا اللازم لهم من أجل أن يحيوا حياة مسيحية صحيحة. شغلت جماعات القداسة موقعًا يقترب من الطرف البعيد للطيف (البروتستانتى)، حيث يقولون بانفصال أكثر تطرفًا عن الشئون الدنيوية ـ لكنهم وبالمعنى المادى ـ يملكون الأقل من هذا العالم الذى يتخلون عنه.

الخمسينية

نشأت الخمسينية بعد عام ١٩٠٠م، وكانت قد نمت أولاً داخل بعض جماعات القداسة، وتبنت تعاليم أكثر تطرفًا ومالت بشكل أكبر لاجتذاب المعدمين اجتماعيًا. وفى الواقع، فقد ظلت لفترة تمثل القطاع الوحيد من البروتستانتية المندمج على المستوى العرقى. ونكرر هنا، أنه من المفيد المقارنة مع الليبرالية. كانت إحدى استراتيچيات الليبرالية هى التشديد على الممارسة الدينية بوصفها دليلاً لا يقهر على المسيحية الصادقة، وقد شددت الخمسينية على ذلك بشكل مختلف، فقد كانت آراؤهم تمثل صورة معاكسة لتلك التى لليبرالية. فحين يتكلم الحداثيون عن «الدين القلبى» الرقيق، يصر الخمسينيون على أنه لا برهان على الدين القلبى الحقيقى إلا بالعلامات التى لا تخطئها العين على التحول الجذرى بفعل الروح القدس، وبخاصة العلامات الخمسينية للشفاء الإيمانى والتخاطب بالألسنة المتنوعة[1].

كان الشفاء الإيمانى والتحدث بالألسنة جزئين من موجة قوية داخل الخمسينية لاستعادة طقوس كنيسة العهد الجديد. افترض الخمسينيون على المؤمنين أن يخبروا تجربة التحول وكذلك تجربة الفيض الدرامى للروح القدس، وأن يحيوا حياة القداسة. وتبنوا عقيدة التدبيرية، وقالوا باحتمال عودة المسيح فى أية لحظة، وقد أصروا على جوهرية كل تلك العقائد للوصول إلى «البشارة التامة».

اشتعلت شرارة نمو الخمسينية خاصة على يد «إحيائيى لوس أنچيلوس» مع بداية عام ١٩٠٦م تحت زعامة الإيڤانجليكى الأسود «ويليام چيه. سيمور». وتوسعت

(١) هبة من الروح القدس جعلت الإخوة فى اليوم الخمسين يتكلمون بألسنة عديدة، كما جاء فى الكتاب المقدس، أعمال الرسل ـ المترجم.

الحركة خلال العقد التالى إلى عدد كبير من الطوائف الصغيرة مع الانفصال فيما بين السود والبيض، وأطلق على البعض من هذه الطوائف الصغيرة مسمى كنيسة الرب. كانت مجمعات الرب هى أكبر هذه الطوائف الفردية والتى تشكلت فى عام ١٩١٤م، وظلت جميعها قليلة العدد وفقيرة نسبيًا وصولاً إلى النصف الثانى من القرن العشرين، حين ازدهرت جهودهم الإرسالية إلى حركة عالمية رئيسية.

كانت كلٌ من هذه الحركات الإيڤانجليكية الجديدة الثلاث ـ التدبيرية، والقداسة، والخمسينية ـ حركات تجديدية بأسلوبها الخاص، لذلك كانوا يتشاركون التشديد ـ المضاد لليبرالية ـ بشكل متميز على التدخل الدرامى من قبل المتجاوز للطبيعة. ترتب على ذلك، أن كان بين الثلاث الكثير من التماثل، وفى الواقع كان هناك العديد من الروابط بينهم. وعلى سبيل المثال، فإن «روبين أ. تورى» مساعد «مودى» قد تحوّل متقلبًا بين المذاهب الثلاثة، على الرغم من أنه لم يوافق على مطالب الخمسينيين الخاصة بالعلامات المرئية لفعل الروح القدس فى المرء[1]. وحدث ما لا يمكن تجنبه، حيث قادت هذه الروابط إلى خلافات أكيدة وإلى انقسامات عديدة، مما أسفر عن تنوع كبير داخل الحركات الثلاث. مع ذلك، فقد كان لاتحاد ثلاثتهم، على الأقل فى معارضتهم المشتركة للحداثة، الأثر الكبير فى تشكيل إيڤانجليكية أمريكا فى القرن العشرين.

تقليدية المهاجرين

بينما كان التيار الرئسى للپروتستانتية الأمريكية يتفتت إلى الكثير من الجماعات، فقد زادت الهجرة المستمرة من تعقيد الموقف. كانت أعداد ساحقة من المهاجرين من الكاثوليك، مع مجموعات محسوسة من اليهود، والأرثوذكس الشرقيين، مما قاد فى مجمله إلى إحساس بأنه لم يعد فى وسع البروتستانتية التقليدية بعد الآن أن تشكل التوافق الأمريكى العام بالأسلوب الذى اعتادته. وفى الواقع، فإن أحد الدوافع التى شكلت البروتستانتية الليبرالية أنها كانت تأمل فى المحافظة على سيطرتها المعتادة. كانت المحافظة على مثل هذه السيطرة أكثر سهولة ـ مع تزايد

(١) مثل القدرة على التكلم بألسنة (بلغات) لم يتعلمها المرء، وشفاء المرضى، والسقوط على الأرض ـ المترجم.

التعددية الأمريكية ـ إذا تم تعريف البروتستانتية بالمثاليات الأخلاقية العالية، والتى لن تجد إلا القليل جدّا من المعارضين.

كان من السهل نسبيًا امتصاص المهاجرين البروتستانت الجدد الذين فى معظمهم من شمال أوروبا ـ ألمان وإسكندناڤيين وهولنديين ـ داخل التيار الرئيسى للبروتستانت إذا كانت لديهم الرغبة. مع ذلك، وعلى المدى القصير، كان العديد منهم يتوقون إلى الحفاظ على ميراثهم الدينى العرقى. وفى الأغلب، فقد كانوا يتشاركون فى المعتقدات اللاهوتيه مع البروتستانت الأمريكيين من المحافظين، لكنهم لم يثقوا فى الأسلوب الإيڤانجليكى المتحمس للأمريكيين، وبخاصة تلك الطوائف البروتستانتية العرقية التى تحركت إلى داخل الأراضى الزراعية للغرب الأوسط، محافظين على النظرة اللاهوتية التقليدية التى شكلتها المعايير الخاصة بالحركة الإصلاحية. ومع تعاقب عدة أجيال، أصبحت أساليبهم المسيحية ـ بما لا يمكن تجنبه ـ مشابهة بشكل أكبر لتلك التى لنظرائهم من الأمريكيين، سواء أكانوا إيڤانجليكيين أو أكثر ليبرالية، لكن هذه التحولات غالبًا ما اتسمت بالبطء.

كان معظم هؤلاء المهاجرين من اللوثريين. وبعد أن كانت اللوثرية فى أمريكا تقل عن نصف مليون فى عام ١٨٧٠م، فقد ارتفعت إلى ما يزيد عن المليونين بحلول عام ١٩١٠م، وأصبحت المجموعة الدينية الرابعة من حيث العدد خلف الكاثوليك والميثوديين والمعمدانيين. مع ذلك، كانت اللوثرية فى ذلك الوقت تجمعًا أكثر منها مجموعة. وكان عدد الطوائف اللوثرية التى تنفصل يدخل فى عداد العشرات، ويتقلب بشكل مستمر بين الانقسامات والاندماجات. كان للوثريين تنوع كبير يماثل الذى لدى الكاثوليك، لكن لم يروا أية ضرورة للعمل المشترك. ولقد توصلوا إلى حل خلافاتهم فى ذلك الوقت عن طريق بقائهم على حالة الفرقة. نبعت هذه التنوعات من مصادر مهمة ـ درجات الأمركة (بعض المجامع الكنسية استخدمت اللغة الإنجليزية، بينما لم يفعل معظمها ذلك)، والاختلافات العرقية (مثل التى بين الألمان، والدانماركيين، والسويديين، والنرويجيين)، والفصل الجغرافى. وبالرغم من هذه الاختلافات، أظهر غالبية اللوثريين التزامًا

عميقًا بالاعتراف الأوجسبرجى[1] وحافظ الكثير منهم على هوياتهم من خلال نظم مدرسية منفصلة. كان مجمع ميسورى الكنسى المحافظ هو المثال الملحوظ فى هذا الشأن. ومثلما كان الحادث فى الكنائس الأمريكية بصفة عامة، فقد جلبت الحرب العالمية الأولى معنى من معانى الوحدة. ترتب على ذلك، أن تولد عنها أعداد كبيرة من الاندماجات بين اللوثريين، كما ولدت الحرب ضد ألمانيا ضغوطًا كبيرة على الكنائس من أجل أمركتها، ولكى تهجر استخدام اللغة الألمانية.

نمت بمعدل عال الكنائس الإصلاحية ذات المواريث الشمال أوروبية، مثل الإصلاحية الهولندية، والإصلاحية الألمانية، فى تلك الفترة الزمنية. أدت سلسلة من الانشقاقات بين الهولنديين فى هولندا وفى أمريكا إلى ظهور الكنيسة الإصلاحية الهولندية (١٨٥٧م) من حيث هى كيان انفصالى ومحافظ يشبه مجمع كنائس ميسورى اللوثرى إلى حد بعيد من حيث اعترافيته الصارمة، وقيام بنائها على نظام تعليم وثقافة فرعية عرقية بشكل جوهرى. ولقد نبتت العديد من المجموعات الشمال أوروبية الأخرى من الهجرة فى تلك المرحلة الزمنية، مثل بعض نوعيات «المينونيتيين»[2]، والهيئة الإيڤانجليكية (الميثودية)، والإخوة المتحدين فى المسيح، والكنيسة الإيڤانجليكية الحرة، والعهد الإرسالى الإيڤانجليكى السويدى، والمعمدانيين السويديين. ولقد أدرجت معظم هذه المجموعات فى تصنيف «الإيڤانجليكى» بسبب دوام عقيدتهم المحافظة، وصولاً إلى أواخر القرن العشرين. مع ذلك، فغالبًا ما لا يحدث الارتياح إلى هذا التصنيف من جانب المجموعات الإصلاحية والمينونيتية بسبب من إرثهم المتميز.

إيڤانجليكية الأمريكيين الأفارقة

مَثّل البروتستانت السود واحدة من أكبر المجموعات الدينية الأمريكية التى

(١) فى عام ١٥٣٠م دعى الإمبراطور شارل الخامس إمارات ومدن أراضيه الألمانية فى مجلس تشريعى فى أوجسبرج؛ ليرد على هجوم الجيوش التركية فى شرق النمسا. ولذا ناشد طبقة النبلاء واللوثريين لشرح اقتناعهم الدينى. وقد دعى فيليب ميلانكون ـ صديق قريب لمارتن لوثر ـ أستاذ العهد الجديد فى جامعة ويتنبرج لكتابة مسودة اعتراف عام. وقدم وثيقة اعتراف أوجسبرج إلى الإمبراطور فى ٢٥ يونيو ١٥٣٠م ـ المترجم.

(٢) أتباع «مينو سيمونز - Menno Simons» (١٤٩٥ ـ ١٥٦١) لا يؤمنون بتعميد الأطفال، ولا بحلول المسيح فى العشاء المقدس ـ المترجم.

تشكلت عن طريق الإرث الإيڤانجليكى وحافظت عليه إلى أطول وقت؛ ولكن بسبب الفصل العنصرى الذى عزلهم عن نظرائهم من البيض، فهم نادراً ما يستخدمون لفظة «إيڤانجليكى»، وعادة ما ينظرون إلى ممارستهم بوصفها أسلوبًا متميزًا قائمًا بذاته.

المسيحية بين السود

كان الأمريكيون الأفارقة حالة متفردة داخل أمريكا، ومن النادر العثور على شبيه لها فى تاريخ أية حضارة. لقد جلبهم المسيحيون الرأسماليون إلى أمريكا وعاملوهم على أنهم مجرد ممتلكات لهم، وجردوهم من معظم ما يعطى الإنسان أى معنى من معانى الهوية. وعندما جلبوهم من أفريقيا نزعوا عنهم تقريبًا جميع الروابط العرقية والعائلية، وحالوا بينهم وبين كرامة العمل. ولقد فصلوهم أيضًا عن دياناتهم التقليدية، لذلك لم يكتب البقاء إلا لأثر ضئيل فقط من تلك العبادات القديمة. لم يتوفر للسود داخل العبودية إلا عنصران رئيسيان فقط يصلحان لبناء ثقافة سوداء إيجابية فرعية: روابط القرابة، والمسيحية الإيڤانجليكية. وقد تقبل السود العنصر الثانى بكل ترحاب، وحماس، وقدرة على الحلم، ولم يروا فى الإيڤانجليكية مجرد دين للشخص الأبيض فقط، ولكن رأوا فيها إنجيلاً حقيقيًا من الروحانية المؤسسة على الإعتاق. لقد عثروا داخل جذور الإيڤانجليكية على الكتاب المقدس، ولم يكن الكتاب المقدس مقصوراً على البيض من الناس لكنه كان لكل البشر الذين يتولاهم الله. لقد جاء الله بالغفران والأمل حتى فى أوقات الشدائد.

لم يغير «التحرير من الرق» - على الرغم من ثوريته الحقيقية - المستوى الاجتماعى للسود إلى ما يقارب ما كان مأمولاً منه. وحتى بعد تحريم الرق، ظلت غالبية ساحقة تأن تحت وطأته فى أرياف الجنوب. كان على السود هناك مواصلة النضال ضد ثلاثة عناصر أخرى على الأقل، وكان كل عنصر منهم يكفى للتأكيد على أنهم سيظلون فى الحضيض اجتماعيًا: انخفاض التعليم، والفقر، والتعصب العنصرى. حدث التصدى الفورى لأول هذه العناصر مباشرة عقب الحرب الأهلية، وخاصة بمساعدة بعض ذوى التضحية الذاتية من «نيوإنجلاند»، وسرعان

ما استمر التصدى على يد بعض زعماء السود من أجل توفير بداية متواضعة على الأقل لنظام تعليمى يصل إلى مستوى نهاية الدراسة الثانوية. ولقد قيدت هذه الجهود بشدة من قبل العنصرين الآخرين. وعقب الحرب، أجبر السود فى الجنوب على التبعية الاقتصادية بسرعة كبيرة، وبخاصة فى مجال المشاركة فى المحاصيل. جعل ذلك من النهوض من الفقر المدقع داخل الأرياف أمراً فى غاية الصعوبة وبعيد الاحتمال. لقد حدد ذلك المصير الاجتماعى للأمريكيين الأفارقة بشكل مطلق، وكذلك فعلت بهم قضية العنصرية. كان الموضوع المحورى فى الجنوب فى ذلك الوقت - كما لوحظ فيما بعد - هو التصميم المطلق على أن يظل الجنوب بلداً للرجل الأبيض. ولوهلة قصيرة خلال «إعادة البناء» التى أعقبت الحرب الأهلية، ضمن السود حقوقهم المدنية، وقد شاركوا حتى فى القيادة السياسية بشكل جوهرى. مع ذلك، كان تأمين هذه الأمور فقط بسبب وجود القوات الفيدرالية داخل الجنوب. وعندما انسحبت هذه القوات فى آخر الأمر عام ١٨٧٧م كجزء من التسوية السياسية، فسرعان ما أعيد وضع السود «فى أماكنهم» عن طريق نظام طائفى تميزى جعلهم بمعزل عن المشاركة فى المجتمع الذى يسيطر عليه البيض. لقد حكمت قوانين «جيم كراو» على السود بأن يتسوقوا، ويأكلوا، ويسافروا، منفصلين عن البيض. وغالبًا ما كان أعضاء كنائس البيض الجنوبية، والذين هم على اقتناع كامل بدونية الجنس الأسود. وزاد من قوة اقتناعهم بهذه الآراء التعصب العنصرى المتنامى فى كل من الشمال والجنوب. يتأولون التأييد اللاهوتى لمثل هذا الفصل والتمييز العنصرى. وقد زادت الكراهية العنصرية المتنامية داخل ثنايا الثقافة الجنوبية بشكل واسع من تفاقم مأزق الإنسان الأسود. وخلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر كان معدل إعدام السود بدون محاكمة قانونية فى الجنوب يصل إلى ثلاثة أشخاص فى الأسبوع.

وقد لعبت الكنائس السوداء والمسيحية داخل هذه التركيبة الجديدة والانفصالية والعدوانية، أدواراً فى غاية الأهمية. وكان لها إسهامان فى غاية التميز على المستوى المؤسسى، فقد كانت الكنائس السوداء هى الوكالات ذات الأهمية القصوى التى توفر الهيكل والقيادة للطوائف السوداء الجديدة والمنفصلة، وكانت مسيحية السود على المستوى الروحى مهمة بما يفوق التقدير، بالنسبة لظروفهم غير

العادية؛ إذ أمدتهم بالمعنى، وبالقبول، وبالأمل، وبكرامة معنوية، فاقت الإيقانجليكية التى لظالميهم من البيض.

خلال مرحلة العبودية، مارس السود الجنوبيون عباداتهم داخل الكنائس البيضاء، وإن كانت فى أماكن منفصلة، وبسرعة جلبت الحرية الاتفاق على أنه ينبغى على السود تأسيس أبرشياتهم وطوائفهم الخاصة بهم. بالنسبة للبيض، عنى الانفصال وسيلة لإضفاء طابع مؤسسى على اشمئزازهم من التعامل مع الزنوج على أية أسس تفيد المساواة، فى حين كان الانفصال بالنسبة للسود جوهريًا من أجل تأسيس استقلالهم الإكليريكى بعيدًا عن سيطرة البيض. كانت هذه الكنائس السوداء التى لاقت ترحيبًا يقترب من العالمية هى المؤسسات السوداء الوحيدة التى استطاعت البقاء بدون إعاقة جادة عقب إعادة البناء، وكان نمو هذه الكنائس ملحوظًا. وقد ضمت ما يقارب ثلاثة وأربعين فى المائة من تعداد السود بحلول الحرب العالمية الأولى، كما فاق مجال تأثيرها داخل الجماعة إحصائيات أعداد العضوية المباشرة.

وقد لاحظ «دبليو. إى. بى. دوبويس» عام ١٩٠٣م أنه «فى الجنوب، وعلى المستوى الواقعى، فكل زنجى أمريكى هو عضو فى الكنيسة». وعزز «دوبويس» قوله بتفسير اجتماعى لاقى قبولاً عامًا حين قال: «يتوجب على الناس المحرومين من الحماية القانونية أن يحصلوا على مركز اجتماعى، وتمثل كنيسة الزنوج هذا المركز بالنسبة لهؤلاء الناس». وفى الحقيقة، تصعب المغالاة فى تقدير التأثير الذى كان للكنيسة داخل طوائف السود خلال تلك الفترة. فقد كانت الكهانة هى فى الواقع المهنة الوحيدة المفتوحة أمام السود، وباستثناء فترة إعادة البناء القصيرة، كانت هى السبيل الوحيد المفتوح على الإطلاق فى أمريكا أمام الذكور من السود وصولاً للزعامة.

علاوة على ذلك، كانت الكنائس هى المؤسسات الوحيدة التى تنتمى بكامل كيانها إلى السود. عادة ما كانت الكنائس مصدرًا للفخر، مثلما شهدت بذلك بعض الصروح المرموقة داخل المدن الجنوبية، وكانت هى المراكز الاجتماعية الرئيسية للطوائف السوداء داخل المدن الصغيرة وكذلك الأرياف. قامت شعبية السود الجنوبيين بشكل كبير على أكتاف الكنيسة، ويقدم التعليق الشهير الذى قال به

رجل أسود من أرياف ألاباما عن المدينة الصغيرة التى فى الجوار تفسيراً اجتماعيًا محنكًا إن لم يكن تلقائيًا : «أن تكون ميثوديًا هى شهادة الجنسية فى هذه البلدة».

وتشكلت الشخصية المسيحية فى الكنائس السوداء بواسطة العديد من العناصر. كانت تتشابه على السطح إلى حد بعيد مع التقاليد المعمدانية والميثودية التى كانت قد نمت من خلالها، لكن كان هناك العديد من الاختلافات. أولاً وقبل كل شىء، كانت قادمة من ثقافات أقرب بكثير لثقافات الكتاب المقدس من تلك التى كانت للأمريكيين الأوروبيين، فلم يستمع الأمريكيون الأفارقة للتعاليم المسيحية من خلال الصياغات المجردة للفكر اليونانى، وكذلك لم يستمعوا للخلافات اللاهوتية المؤكدة داخل العالم الغربى. كانت المسيحية الخاصة بهم أقرب عهدًا بالكتاب المقدس، وكان تعبير «المؤمن بالكتاب المقدس» بدلاً من «الإيڤانجليكى» هو تعبيرهم المستخدم. كان إيمانهم أكثر تلقائية من ذلك الذى لدى نظرائهم البيض، واصطبغ بشكل خاص بصبغة حساسة وتجاوبية فى طقوس العبادة، وحوار لحنى وخلاق بين الواعظ وتجمع المستمعين، وخلق أنماط ظهرت بعد ذلك فى موسيقى الجاز. إضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن السود والبيض قد أنصتوا خلال فترة العبودية إلى العظات نفسها، فقد فهم السود معانى مختلفة من الإنجيل عن تلك التى سمعها ظالموهم من البيض. تمحورت تلك الخصائص المتعلقة بعلم اللاهوت لديهم حول الحرية. وعلى الخصوص، كانوا فى غاية الحساسية تجاه معجزات الله وعنايته الإلهية. لقد شاهدوا خلال الروايات مثل روايات سفر الخروج أو قصة الطفل عيسى، أن الله يولى عنايته لعباده، بوصفه محاربًا عظيمًا وكذلك صديقًا رحيمًا يتشارك مع البشر فى ضعفهم ووهنهم. كانت السيادة للرجاء فى الجنة كما جاءت فى بعض الروحانيات؛ لذلك لم تتعارض هذه الرغبات مع الاهتمام بتأثير الإيڤانجليكيين فى هذه الحياة. وفى الحقيقة، فإن العنصر الحاسم فى الوعى المسيحى للسود، وعلى النقيض من نظرائهم من الإيڤانجليكيين البيض، هو أنه من خلال موقع الأفضلية الخاص بهم لكونهم هم الفقراء والمظلومين، فقد سمعوا بوضوح أكبر عبارات الكتاب المقدس الخاصة بمسئوليات المسيحى تجاه إخوته وأخواته من المحتاجين.

تعرضت متانة المجتمع المسيحى الأسود لاختبارات من قبل نفس قوى العلمانية التى كانت تغير من حال أمريكا كلها، وأصبحت لهذه الموضوعات السيادة بوجه خاص مع نهاية القرن عندما بدأت الهجرة العظيمة تجاه مدن الشمال. وقد لخص الواعظ الأسود «فرانسيس چيه. جريمك» فى واشنطن د. س. هذا الموقف بشكل جيد عام ١٨٩٩م. بينما كانت القضية هى بوجوب اعتبار الفرد الأسود «مواطنًا ذا صلاحيات كاملة»، وعلى استهجان إحياء «البربرية الجنوبية» التى تطل برأسها من خلال قوانين الإعدام بدون محاكمة، فقد أصر «جريمك» على أن الأخطار العظمى على أناسه تأتى من الرذائل الاجتماعية التى يواجهونها داخل المدن والناتجة عن المادية، ومعاقرة الخمر، والترخيص بالجنس.

ولولا الدعم الاجتماعى من جانب طوائف الأرياف ذات النسيج المتماسك، لأعيد تشكيل الكنائس السوداء فى المدن الكبيرة - والتى ظلت تقليدية - تحت ضغط الظروف غير المستقرة ونظام الاقتصاد الحر. ووفرت جماعات القداسة والجماعات الخمسينية من خلال تنوعها المثير للارتباك قنوات للتعبير عن أشد العواطف عمقًا بين المهاجرين. وازدهرت المجموعات والطوائف الدينية، حتى الغريبة. كان الأكثر شهرة من بينها هو «الأب المقدس» (١٨٧٩ - ١٩٦٥م) الذى ادعى أنه تجسد لله، واكتسب شهرته فى بروكلين وهارلم خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. ولا ينبغى التضخيم من مثل حالات الخروج عن المألوف هذه على الرغم من حصولها على الانتشار العام. كان المعمدانيون يمثلون حوالى الثلثين من عضوية الكنائس السوداء، ومثّل المذهب الميثودى أغلبية الثلث الباقى. كانت الكنيسة تحتفظ بكونها محور حياة السود، وليس ذلك فى مناطق الأرياف من الجنوب فقط، ولكن حتى داخل المدن الكبيرة فى الشمال والتى كان ينتقل إليها جانب كبير من التعداد.

وعلى الرغم من تراجع الكنائس خلال مرحلة الجاز، فقد ظل العديد من القوى يُناضل بها.

انبعاث الأصولية

الحروب هى محفزات التاريخ. إنها تكثّف وتعجّل من التوجهات الكامنة

بالفعل داخل الثقافة، وقد كان للحرب العالمية الأولى تأثير هائل وخاص على الحياة الأمريكية. كانت الولايات المتحدة حتى ذلك الوقت تقبع بعيداً عن قلب الشئون الدولية. واتسمت أمريكا ما قبل الحرب بالتفاؤل الملحوظ على الرغم من مشكلاتها المتعلقة باستيعاب المهاجرين ذوى التنوع الشديد. لم يكن هناك تحد تصعب السيطرة عليه من جانب المثالية الأمريكية ومن جانب تقنية استخدام المعارف. وقد ألقى الأمريكيون بكل ثقل ثقتهم بالنفس وكذلك حماسهم المعنوى لدعم المجهود الحربى، وقد نجحوا فى ذلك. ولكن كان حيز النجاح محصوراً إلى حد كبير فى ميدان القتال. وبرغم بعض الاستثناءات من القاعدة، لم تكن الحرب ممارسة تطهرية، ففى خارج الولايات المتحدة سرعان ما تلاشت الحملة الصليبية من أجل «جعل أمريكا آمنة من أجل الديمقراطية»، وداخل الوطن أطلقت الحرب قوى العلمانية من عقالها مما استدعى عصر الجاز. كما أشعلت أيضاً فتيل مرحلة من المرارة ورد الفعل، واجتاحت الانشقاقات المثالية الأمريكية. وعلى الرغم من النضال الأخير من أجل إبقاء أمريكا بروتستانتية، كانت حقيقة الأمر هى انتهاء العصر الذى كانت فيه الولايات المتحدة هى ـ بأى معنى من المعانى الجوهرية ـ معقل «المسيحية».

وبينما طال التغيير الجوهرى كل مجموعة مسيحية رئيسية فى أمريكا بسبب الحرب، لكن التأثير الذى طال طائفة البروتستانت البيض ذات السيطرة الثقافية كان هو الأكثر شدة. لقد أوقعت التغيرات الثقافية المصاحبة للحرب وكذلك توابعها هذه الطائفة فى اضطرابات لمدة عقدين، وبعدما استعادت عافيتها إلى حد ما عقب الحرب العالمية الثانية، لم تعد إلى ما كانت عليه.

بمجرد دخول أمريكا الحرب الأوروبية فى ربيع عام ١٩١٧م، لم يقاوم إلا القليل من رجال الإكليروس تلك الموجة الوطنية الغامرة التى اكتسحت البلاد. توحدت الهوية المسيحية مع الهوية الأمريكية بشكل كامل. وقال الإيڤانجليكى «بيلى صاندای» بشكل مباشر: «المسيحية والوطنية هما كلمتان مترادفتان، كما أن الجحيم والخونة مترادفان أيضاً». كان «صاندای» (١٨٦٢ - ١٩٣٥م) قد بلغ لتوه قمة شهرته عندما اندلعت الحرب، وقد أدخل فى رسالته الحرب بحماسة غير عادية، ومن بين أعظم الإيڤانجليكيين من أمثال «فينى»، و«موودى»، و«صاندای»، و«جراهام»، كان «بيلى صاندای» هو رجل العروض الأول.

ولأنه كان لاعب كرة بيسبول سابقًا، فقد امتلأت قُدّاساته بالألعاب الأكروباتية والقفز والسقوط والدوران السريع والانزلاق، وكان عندما تغمره الوطنية، ينهى موعظته بالقفز فوق قمة منبر الوعظ ملوحًا بالعلم الأمريكى.

وباستثناء الأسلوب، لم يتفق اللاهوتيون الليبراليون مع المحافظين فى أى شىء على الجبهة الوطنية. وبينما خلط الإيڤانجليكيون من أمثال «صانداى» الدين الفولكلورى الوطنى مع ديانتهم المسيحية، كان لليبراليين رهان لاهوتى أعمق على الحرب «لجعل العالم آمنًا من أجل الديمقراطية». كانت النسخة الأقصى حداثة من إنجيلهم ترى الله يعمل من خلال التقدم فى الحضارة، وبخاصة الحضارة الديمقراطية مثل الموجودة فى أمريكا. وعليه كانت الحرب بالنسبة لهم بكل وضوح قضية مقدسة؛ لذلك قال «شيلر ماثيوز» مدير الجامعة لمدرسة اللاهوت فى شيكاجو فى تصريح مميز «الأمريكى الذى يرفض المشاركة فى الحرب الحالية..... ليس مسيحيًا».

من بين المحافظين والليبراليين من المسيحيين، تصارع المعتدلون فيما يتعلق بقضية الحرب والكوارث الأخلاقية المترتبة عليها. مع ذلك، فقد أجبرت ضغوط الرأى العام معظم غير المتحمسين على أن يلتزموا بالصمت الحذر، وكان الكثيرون على استعداد - ومن بينهم الوعاظ وعلماء اللاهوت - لإلقاء الحجر الأول على من يشتبه فى تهربه من الحرب. وعلى سبيل المثال، اعتبرت مدرسة اللاهوت بجامعة شيكاجو عقيدة التدبيرية « ما قبل الألفية» (والتى رفضت معادلة تقدم مملكة الرب مع تقدم المجتمع الديمقراطى) هدامة بالنسبة للمجهود الحربى، وتعرضت لهجمات مريرة للغاية.

وسرعان ما أدت هذه الضغوط إلى إعادة كل فرد تقريبًا إلى داخل الصف مع اعترافات مغالية بالوطنية. وقد استمدت هذه العواطف العون بحلول عام ١٩١٨م عن طريق روايات الفظائع عن ألمانيا التى تم تداولها وقبولها بشكل واسع، مما أدى إلى اقتناع الكثيرين بأن الحرب هى مسألة حضارة مسيحية ضد الجنود الألمان البرابرة والمتعطشين للدماء. كان «نيويل دوايت هيليز» راعى كنيسة «هنرى وارد بيتشر» القديمة بأبرشية پلايموث فى بروكلين، هو الزعيم فى خلق هذا الاعتقاد. ألقى «هيليز» فى عام ١٩١٧م ما يزيد على أربعمائة محاضرة حول فظائع الألمان وألهب

مستمعيه بروايات عن كيفية قيام الجنود الألمان باغتصاب وتشويه النساء البريئات. وادّعى أن القيصر الألمانى أعطى كل جندى ألمانى رخصة واضحة «لارتكاب أية جريمة يرغب فى إتيانها». (أصبحت إحدى أسوأ تبعات هذه الهستيريا واضحة للعيان فى وقت متأخر للغاية، عندما حدث تجاهل للصحفيين الذين أرسلوا تقارير عن فظائع «هتلر»، وفقدت مجهوداتهم التقدير بحسبانها ليست إلا دعاية فى زمن الحرب).

مع ذلك، كان التأثير الرئيسى فى ذلك الوقت، هو خلق كراهية أمريكية لكل ما هو ألمانى. وقد حظر تعليم اللغة الألمانية فى بعض المدارس العامة، وفى العديد من الأماكن.

اعتبرت قداسات الكنائس التى تقام بأية لغة عدا اللغة الإنجليزية برهانًا على ضعف الوطنية، وكان الرأى العام المضاد لاستخدام اللغات الأجنبية فى إقامة الطقوس الدينية خلال الحرب، مقترنًا بالضغوط لإعلان الأمريكانية الشاملة، ويشكلان عنصرين مهمين فى التعجيل بأمركة الكثير من المهاجرين الجدد الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس.

بعد الحرب

عندما انتهت الحرب فى نوفمبر عام ١٩١٨م لم تكن حماسة الأمة للحملة الحربية قد وصلت بعد إلى ذروتها. كانت الوطنية المتطرفة التى تعالت نتيجة دعاية وقت الحرب قد اشتد ساعدها نتيجة النجاحات المؤكدة للجيوش الأمريكية. بعدها وحيث كان الحماس لا يزال يتزايد، جاء السلام المفاجئ فترك الأمة غائصة فى تأرجح نفسى كبير، لكن بلا عدو محدد بوضوح. وخلال الأعوام التالية، اختلطت موجات الحماس العالية مع بقايا المرارة والشك والكراهية. وكالعادة، كان للكنائس دور محورى تلعبه.

فى البداية، كان المزاج الطاغى فى معظم الكنائس يحمل شعوراً بالوحدة والمثالية. وتزامن التجلى الأكثر درامية لهذا المزاج مع الانتصار النهائى لحركة حظر الخمور. فخلال عام ١٩١٧م أحرزت هذه الحركة ـ التى كانت تنمو بثبات لعقود ـ النصر بشكل فجائى فى قلب حماسة زمن الحرب. اتحد الكثيرون من البروتستانت والكاثوليك والتقدميين فى هذا الجهد الاستثنائى لتنظيف المنزل. استطاعوا بشكل

عاجل تمرير عدة قوانين تحظر إنتاج أو بيع المشروبات الروحية، وسرعان ما تبعوا ذلك بإصدار التعديل الثامن عشر، الذى أعاد فقط تأكيد الإنجاز عندما دخل أخيراً إلى حيز التنفيذ عام ١٩١٩م. يعود هذا الانتصار الواضح لهذه التجربة الاجتماعية بشكل هائل إلى مساهمة المثالية المسيحية الخاصة بتلك الفترة.

فى البداية كان للحرب تأثير وحدوى، وقد سرى ذلك التأثير بشكل واسع على وجه الخصوص بين البروتستانت المتحمسين للوحدة المسيحية وللإصلاح العالمى. حمل الجهد الأكبر أهمية لتنظيم هذا التوقد الحركة العالمية بين الطوائف والكنائس والتى انطلقت عقب الحرب مباشرة. أظهرت هذه الحركة نفس الحماسة التى سبق أن ألهمت الحركة التقدمية للرجال والدين، وقد تشكلت هذه الحركة من أجل توحيد الجهود الخيرية والإرسالية والروحية للمسيحيين على اتساع العالم. وأثناء الحديث عن التوحيد الفعلى للكنائس، تشارك زعماء الحركة فى «رؤية كنيسة موحدة ترمى لتوحيد عالم منقسم».

بحلول صيف عام ١٩٢٠م، ظهرت الانشقاقات داخل الحركة العالمية بين الطوائف والكنائس. لقد جلبت المعارضة المحافظة إلى الحركة مصيراً يشابه إلى حد كبير ذلك الذى كان لعصبة الأمم التى اقترحها الرئيس «ودرو ويلسون» بعظيم الأمل، وانتهى الأمر فى عام ١٩٢٠م بأن كانت الولايات المتحدة وحدها هى التى رفضت الانضمام لتلك العصبة.

لقد اختفت مثالية الحرب العالمية الأولى بسرعة كبيرة تحت ظل رد الفعل المرير المتنامى داخل الكنائس، مثل الحادث فى الأمة عموماً. عندما انتهت الحرب فجأة، فقد بدا كما لو أن عنصراً معتبراً من الشعب الأمريكى فى احتياج إلى العثور على أعداء جدد لينفس خلالهم انفعالاته الملتهبة. تضافرت الثورة الماركسية فى روسيا عام ١٩١٧م مع القلاقل العمالية، وسلسلة من انفجارات القنابل الإرهابية المرعبة على صب الوقود على نار «الرعب الأحمر» خلال عام ١٩١٩م، حيث وقعت معظم الأمة فى قبضة المخاوف من الاختراق ومن صعود الشيوعية. وكان إحياء منظمة «كوكلوكس كلان» يحمل ارتباطاً مباشراً بالكنيسة، وأعيد تشكيل هذه المنظمة المناهضة للسود عام ١٩١٥م؛ ليتسع نطاق كراهيتها ويشمل الكاثوليك،

واليهود، والشعوب غير الشمالية بشكل عام. وإذا كانت الحرب قد عجلت من امتصاص هذه المجموعات غير الشمالية داخل التيار الرئيسى للحياة الأمريكية، فإن توابع الحرب قد عجلت من ردود الأفعال والتحيزات ضد هذه المجموعات من جانب العديد من الأمريكيين ذوى الأصول الشمال أوروبية. وبحلول عام ١٩٢٣م، وصلت «الكلان» إلى ذروة الحجم بحوالى ثلاثة ملايين عضو. وعلى الرغم من عدم ربط هويتها مباشرة مع أية طائفة أو أية حركة بروتستانتية، وعلى الرغم كذلك من إنكارها من جانب الليبراليين والمحافظين على السواء، فقد ادعت منظمة «الكلان» بلا مواربة بأنها بروتستانتية. لقد تبنت تعاليم وتراتيل ورموزاً مسيحية، ومثلت قطاعًا له اعتباره داخل الطائفة البروتستانتية المهنية. وربما يكون رمز الصليب المشتعل هو أفضل ما يضع يدنا على الأسلوب الذى تبين به هذه الحركة ـ مثلها مثل الحركة النازية فى ألمانيا فيما بين الحربين ـ كيفية الدمج بين التراث المسيحى، مع دين فولكلورى قومى، مع المصالح الذاتية، مع كراهية الآخر.

وبالطبع، لم تمثل منظمة «الكلان» الغالبية الساحقة من البروتستانت الأمريكيين سواء فى الجنوب أم الشمال. مع ذلك، كانت تجليًا متطرفًا للميول التى تتخلل الجماعة الأمريكية المسيطرة ولكن بأشكال معتدلة. وبالتحديد، كانت المشاعر قوية ضد «الأجانب». وعلى المستوى الاقتصادى، فقد بدوا وكأنهم يمثلون تهديداً، أما اجتماعيًا فقد كانوا فى المركز من مشكلات الأرياف. علاوة على ذلك، فإن استمرار تدفقهم سوف يضع النهاية الدينية والثقافية لسيطرة البروتستانت من الأنجلوساكسون. قاد تراكم هذه المشاعر إلى وضع القيود على الهجرة بعد الحرب، وبلغت تلك القيود أوجها فى قانون «چونسون ريد» عام ١٩٤٢م، والذى حدد حصصًا قاسية بالنسب التى كان عليها تعداد الولايات المتحدة فى عام ١٨٩٠م. أثرت هذه الجهود بشكل مباشر على زيادة اليهود، والكاثوليك من جنوب وشرق أوروبا، وعلى الطوائف الأرثوذكسية.

وقد واجهت جميع الطوائف الدينية الأمريكية تحديات حقيقية ومحبطة على جبهة أخرى فى العشرينيات من القرن العشرين. فقد عجلت الحرب وأخرجت إلى

العلن العلمانية التى كانت تنمو داخل الحياة الأمريكية. فحين كان المرء فى عام ١٩٠٠م يتحدث مع أصحابه عن الدين فى أدب، ولم يكن يجرؤ على الإطلاق على ذكر الجنس، فبحلول العشرينيات من القرن العشرين كان العكس هو الحادث فى الأغلب. هذه «الثورة فى الأخلاقيات» كانت جلية وبخاصة فى المدن وفى الثقافة الشرقية والتعليمية التى حكمت الإعلام الأمريكى. وبدأت فى عام ١٩١٩م صحف الفضائح (التابلويد) الحديثة، بعناوين رئيسية عن القصص المثيرة للمشاعر والهادفة للإثارة. واستغلت السينما نجوم الجنس إلى أقصى مدى. وكان الأدب نصف الجاد مملوءاً بنقاشات حول فرويد، والفرويدية، وبأهمية حرية التعبير. واستغلت الإعلانات الحديثة هذه الحرية الجديدة، فبيع الصابون - مثلما كان ملاحظًا - كما لو أنه عقار مثير للشهوة الجنسية. وجاء مع هذا التغير فى الثقافة الشعبية الانهيار المفترض فى قوة الدعم الاجتماعى لمعايير السلوك الشخصى التى كانت ضمن القواعد النابعة من الكنائس. مارست النساء التدخين فى العلن، ولم يعدن على الدوام يغطين ركبتهن (حتى داخل الكنائس)، ورفضن أن يتبعن المثل العائلية التى ضربتها أمهاتهن. أما الرقص والذى كان لفترة طويلة من المحرمات بالنسبة لبعض البروتستانت، أصبح الآن له دوره المكمل للقبول الاجتماعى فى زمن الفتاة العصرية. وفى حين تقبل بعض رؤساء الكنائس الأمر ببساطة، وأدخلوا الرقص حتى إلى مقابلات الشباب فى الكنسية، فقد أصيب آخرون بالرعب. وقد اشتكى أحد الأساقفة الميثوديين من الجنوب المحافظ من الرقصات الجديدة قائلاً: «تتصل أجساد الرجال والنساء مع بعضها البعض بشكل غير عادى». وأدت المقاعد الخلفية فى العربات الجديدة نفس الوظيفة. وعلى الرغم من إمرار قانون حظر الخمور، كانت المعركة من أجل فرض الڤيكتورية التقليدية والأخلاقيات الميثودية معركة خاسرة.

جلب مناخ الأزمة هذا معه اختلافًا حادًا فى الآراء داخل الكثير من الكنائس البروتستانتية. وظل الكثيرون من الليبراليين على تفاؤلهم، ورأوا فى تفكيك التقاليد فرصة من أجل بناء إجماع مسيحى ليبرالى جديد، وكان رد فعل المحافظين قويًا على الجانب الآخر. وبذلك، فإن قوى ما بعد الحرب المتنوعة، والتى أفرزت

كلاً من الحركة العالمية للتعاون بين الكنائس ـ ومعها أحيت حركة «الكلان» ـ والانتصار القانونى لحظر الخمور، ومقابل ذلك الانتصار الفعلى للثورة العامة ضد أخلاقيات البروتستانت التقليدية، قد جلبت معها الخلاف العميق حول قضايا لاهوتية وإكليريكية جادة. كانت هذه الخلافات تتطور منذ زمن بعيد. كانت كلٌ من الليبرالية، وفى مقابلها حركات محافظة مضادة ذات حجم معتبر، يرتفع بنيانهما على مدى جيل، لكن نشاط ما قبل الحرب قد ألقى بظله على النقاشات اللاهوتية، وجرى الحفاظ على سلام نسبى. مع ذلك، أجبرت أزمة الحرب وما بعدها كل جانب على مواجهة الآخر، وعلى رؤية مدى اتساع خلافاتهما الفعلية بخصوص رؤاهم تجاه الكنائس وتجاه الثقافة الأمريكية.

الأصوليون فى مقابل الحداثيين

كان التجلى البارز لهذا الاكتشاف المشترك، الأصولى فى مقابل الحداثى، هو خلافاتهما التى سادت الأنباء الدينية فى العشرينيات من القرن العشرين. من الصعب القول بمن هو صاحب الطلقة الأولى فى هذا الخلاف، حيث إنه بنهاية الحرب العالمية الأولى كان العديد من القصفات الرئيسية قد صدرت من كلا الجانبين.

كان الليبراليون أكثر تحديًا عن ذى قبل تجاه التنظيم من أجل الوحدة والعمل، وبالتحديد فى مهاجمة خصومهم من المحافظين. كان المحافظون بالمثل، ينظمون بشكل ملحوظ خلال عام ١٩١٩م من أجل إقامة «الهيئة العالمية للأصول المسيحية»، وهى مجموعة تدبيرية «ما قبل ألفية» أنشئت من أجل محاربة الحداثة. وفى العام التالى، نظم المحافظون فى التجمع المعمدانى الشمالى مؤتمرًا عن «الأصول» لتجنيد وتجميع المعارضة ضد الليبرالية. ظهر مصطلح «الأصولية» فى هذه المناسبة، عندما صاغه «كيرتز لى لوز» المُحرر المحافظ للجريدة المعمدانية "The Watchman Examiner" لكى يصف هؤلاء الذين «**على استعداد لدخول المعركة الكبرى من أجل الأصول**». وسرعان ما استخدم هذا التعبير لوصف جميع أنواع البروتستانت الأمريكيين الذين على استعداد لشن حرب إكليريكية ولاهوتية ضد الحداثة فى اللاهوت، وضد التغيرات الثقافية التى رحب بها الحداثيون.

كانت القوى الأصولية فى العشرينيات من القرن العشرين لا تقهر؛ بسبب أنها مثلت تحالفًا من البروتستانت المحافظين كان آخذًا فى النمو منذ بعض الوقت. وكان التدبيريون «ما قبل الألفيين» يمثلون مركز هذا التحالف، وهم كانوا يروجون لتعاليم التدبيرية لما يقارب نصف قرن من خلال مؤتمرات النبوءات، ومعاهد الكتاب المقدس، والحملات الإيڤانجليكية، والكتاب المقدس طبعة «سكوفيلد» (١٩٠٩م). وكان نفس هؤلاء الزعماء قد روجوا لتحالف أعرض عن طريق النشر والتوزيع المجانى الواسع لكتاب «الأصول» ذى الاثنى عشر جزءًا، والذى يضم بين دفتيه كل أفكار الدفاع عن العقائد الأصولية، بقلم كُتاب متنوعين من الأمريكيين والبريطانيين المحافظين.

وتشعب الخلاف فى بواكير العشرينيات من القرن العشرين داخل كنائس البروتستانت مثلما كان عليه الحال أيضًا فى الثقافة عامة. وحاول المحافظون داخل الطوائف الرئيسية وفى مجالاتها التبشيرية، العمل على إحباط تقدم الحداثة عن طريق مختلف الأساليب التشريعية المصممة بغية فرض الالتزام بالعقائد الأصولية للمسيحية التقليدية المتجاوزة للطبيعى. أما على صعيد التبشير الخارجى، حيث يعتبره الإيڤانجليكيون المحك لجوهر خلاص النفوس، كانت المنافسة بين المحافظين والليبراليين شديدة بوجه خاص، وقد عكست هذه الخلافات نفسها فى الأزمة داخل الوطن، كانت هذه الخلافات شديدة، وبخاصة فى الطوائف التى كان للأصوليين والليبراليين تمثيل متعادل بداخلها. مثّل كلٌّ من التجمع المعمدانى الشمالى، والكنيسة المشيخية (الشمالية) فى الولايات المتحدة المركزين لهذا الخلاف الطائفى المؤكد. كما اشتعل خلاف مماثل داخل «حوارى المسيح» بين الليبراليين والحواريين التقليديين، أدى إلى انفصال فعلى بين الجانبين بحلول منتصف عشرينيات القرن العشرين. وقد عانت الكنيسة الأسقفية البروتستانتية وكذلك الميثوديون الشماليون من غضبات بسيطة من جانب الأصوليين خلال تلك الفترة، لكن الليبرالية والاعتدال داخل هاتين الطائفين كانا متقدمين للغاية بما لا يدع لنجاح الأصوليين فرصة كبيرة. ويصدق الأمر نفسه على الأبرشيين، حيث لم يكن بينهم أى خلاف حقيقى. وعلى النقيض، كان المحافظون فى الجنوب يحكمون سيطرتهم

التامة. كان معظم الجنوبيين منذ وقت الحرب الأهلية معادين لليبرالية والحداثة، اللتين قرنوهما بثقافة اليانكى (الشماليين).

كان «چيه. جريشام ماكين» أستاذ العهد الجديد بالمعهد اللاهوتى فى پرنستون هو الناطق الرئيسى بلسان التحالف بين الأصوليين - المحافظين فى المعركة الخاصة بالطوائف. وقد جادل «ماكين» فى كتابه «المسيحية والليبرالية (١٩٢٣م)» بأنه حين أنكرت الليبرالية الجديدة أن خلاص البشر يعتمد على الحقيقة التاريخية بأن المسيح قد مات من أجل أن يكفر عن خطايا الإنسان، أصبحت هذه الليبرالية غير مسيحية على الإطلاق، بل أصبحت دينًا جديدًا. لقد أصبحت بشكل جوهرى إيمانًا بالإنسانية حتى على الرغم من استخدامها للغة ورمزية مسيحية. وقال إنه يتوجب على الليبراليين أن ينسحبوا بكل أمانة من الكنائس التى قامت على أسس مختلفة تمام الاختلاف نابعة من مسيحية الكتاب المقدس. وقد رد الليبراليون برفق، مجادلين بأنهم إنما كانوا يحافظون على جوهر المسيحية، وبأن المحافظين لا يصادقون إلا على «نظريات» حول ما يقوم الكتاب المقدس بتعليمه. وما هو أكثر أهمية، أن الليبراليين قد أقاموا موقفهم على مبدأ التسامح.

وبما أنه حتى داخل الطوائف، مثل المعمدانيين الشماليين، والمشيخيين الشماليين كان النزال محمومًا، لم يكن معظم البروتستانت الأمريكيين من الحداثيين ولا من الأصوليين المقاتلين، وغالبًا ما كانت اقتراحات السلام والتسامح تحظى بدعم رئيسى. وبالرغم من أن الأصوليين قد حازوا بعض الانتصارات الرمزية داخل هذه الطوائف، فقد أصبح من الواضح بحلول عام ١٩٢٦م أن سياسات التسامح والاحتواء هى صاحبة السيادة.

فى الوقت نفسه، اجتذب الخلاف الأصولى مزيدًا من الاهتمام على الجبهة الثقافية، حيث انتظم الأصوليون من أجل إنقاذ المجتمع الأمريكى من «الكفر». وقد ولّدت الحرب العالمية الأولى لدى الكثير من المحافظين الإيڤانجليكيين شعورًا بالأزمة تجاه الثورة فى الأخلاقيات، وتجاه تجدد الاهتمام برفاهية الحضارة. فمن ناحية اقترنت الحرب مع الثورة الماركسية عام ١٩١٧م، مما جلب خوفًا واسع المدى

من انتشار نظام سياسى ملحد وعلنى. وما يزيد الأمر وضوحًا، فإنه فيما يخص الثقافة الأمريكية، كان نموذج ألمانيا هو المثار. **كانت الحضارة الألمانية تُعرض أثناء الحرب بوصفها جوهر البربرية على الرغم من إرثها المسيحى القوى. هل يمكن حدوث الأمر نفسه هنا؟** وكانت رياح التغيير الشديدة تنبئ بإمكان حدوث ذلك.

أصبح الرمز المحورى الذى ينتظم المخاوف حول احتضار الثقافة الأمريكية هو نظرية بيولوچية النشوء والارتقاء، كانت الداروينية فى جوهرها إلحادية، وبذلك سوف يسهم انتشارها فى تآكل الأخلاقية الأمريكية. ترتب على ذلك أن بدأ الأصوليون عقب الحرب مباشرة فى تنظيم حملات قوية ضد تدريس التطور البيولوچى فى المدارس الأمريكية العامة. حصل هذا المجهود على عون هائل عندما دخل «ويليام چينينجز برايان» فى عام ١٩٢٠م - وهو مرشح الرئاسة الديمقراطى لمرات ثلاث، وواحد من أعظم خطباء الأمة - فى النزاع ضد الداروينية. كانت جهود الأصوليين المضادة للتطورية سياسية بشكل جوهرى، لذلك فقد اجتذبت تنوعًا أعرض من النواة الخاصة بالپروتستانت الإيڤانجليكيين المحافظين لاهوتيًا. وبحلول منتصف العقد كانت القوانين التى تحظر تدريس النشوء والارتقاء فى المدارس العامة قد دخلت التنفيذ فى عدد من ولايات الجنوب، وكانت قوانين الحظر فى الطريق فى عدد من الولايات الأخرى. **وقد أدت هذه المجهودات إلى محاكمة «سكوپس» الشهيرة فى اختبار عملى لتنفيذ قانون حظر تدريس النشوء والارتقاء فى تينيسى عام ١٩٢٥م، فى حادثة دفعت الأصولية إلى بؤرة الاهتمام العالمى، كما آذنت فى نفس الوقت بانهيارها كقوة قومية فعّالة**. كان «چون ت سكوپس» وهو مدرس شاب فى مدرسة ثانوية، قد اعترف بتدريس النشوء والارتقاء، وأحيل إلى المحاكمة ودافع عنه المحامى الجنائى الشهير «كلارينس دارو». وقد تطوع «ويليام چينينجز برايان» لمساعدة المدعى العام رافعًا بذلك الستار عن مشهد للمكاشفة بين الأصولية وبين التشكيكية الحداثية. **اهتمت الصحافة بتغطية المحاكمة، بقدر اهتمامها بأول عبور جوى للأطلنطى بطائرة ليندبرج**[1].

وعلى الرغم من أن نتائج المحاكمة لم تكن حاسمة، واستمر القانون، لكن الرسوم الهزلية فى الصحافة التى صورت الأصوليين على أنهم ريفيون بلهاء ذوو

(١) أنتجت هولى وود فيلمًا عن المحاكمة سمته (داروين والكتاب المقدس) - المترجم.

عقول خرقاء، قد حط من قدر الأصولية وجعل من الصعب عليها مداومة المتابعة لشئون الحركة الجادة. ووجد الأصوليون بعد عام ١٩٢٥م صعوبة فى الحصول على الاهتمام القومى باستثناء أن يقوم بعضهم بجهود خارقة. وعلى سبيل المثال، كانت «إيمى سيمبل ماكفرسون» إيفانجليكية من الشخصيات الدينية الذائعة الصيت فى هذه الفترة، وهى لم تكن أصولية بالمعنى الخاص بالانخراط فى الحملات المعادية للحداثة، لكنها كانت خمسينية من المشددين على القدرة على الشفاء وعلى نعمة الألسن.

وفى عام ١٩٢٦م، وفى حادثة مثيرة نشرت على نطاق واسع، اختفت عن الأنظار لمدة شهر مدعية بأنها اختطفت. وقد اتهمها الآخرون بفضيحة، لكنها خرجت من هذه القصة بشعبية أكثر من ذى قبل، وأسست فى عام١٩٢٧م فى لوس أنچيلوس طائفتها الخاصة وهى «الكنيسة الدولية لإنجيل المربعات الأربعة».

وعلى الرغم من أن هذه الحوادث المثيرة قد جعلت الغيوم تحيط بصورة البروتستانتية الإحيائية، فقد استمرت الحركة فى النمو بأشكال متعددة خارج التيار الرئيسى لحياة كنيسة البروتستانت. وفى الوقت نفسه فقد وقع الضرر على طوائف التيار الرئيسى ذاتها من جراء الخلافات الأصولية الممتدة، ومن جراء عجزهم عن العثور على الاتجاه الواضح.

وفى حين سيطر الخلاف بين الأصوليين/ الحداثيين على البروتستانتية وعلى معظم الأنباء الدينية فى ذلك العقد، كانت المجموعات غير البروتستانتية المختلفة تؤسس لمواضع أقدام أقوى، بوصفها شرائح ثابتة من الثقافة والدين الأمريكيين.

كان التجلى الأكثر درامية لهذه المكاسب هو فى ترشيح «آل سميث»، وهو كاثوليكى؛ ليكون المرشح الديمقراطى للرئاسة عام ١٩٢٨م. **فقد أشعلت حملة «سميث» جدلاً عنيفًا ضد الكاثوليكية فى قلب البروتستانت المحافظين. وقالوا «غداً قد يكون لدينا «سميث»، وبعد غد سيكون لدينا «البابا»**. عدلت مثل هذه الاتهامات من اتجاه الأصوات، لكنها لم تعدل من اتجاه الانتخابات، حيث كان من شبه المؤكد أن تكون فى صالح «هربرت هوڤر» على أية حال. مع ذلك، كانت هذه القصة فى صدقها الذى يماثل صدق الدعم لتقييد الهجرة فى أوائل العقد، مؤشراً

على عدم رغبة الكثير من البروتستانت فى التخلى عن فكرة أن أمريكا هى أرض البروتستانت.

كانت معارضة البروتستانت المحافظين لحملة «سميث» هى آخر ظهور علنى رئيسى للأصولية فى الحياة العامة الأمريكية خلال العشرينيات من القرن العشرين. وسرعان ما بدت وكأنها النفس الأخير للأصولية. وبدت الأصولية واقعة فى فوضى، وافترض معظم المراقبين أنها قد أحرقت نفسها، وأنها سرعان ما سوف تختفى إلى الأبد. **وقدمت التحليلات النموذجية افتراضًا أن الأصولية كانت نتاجًا لثقافة الأرياف، وأنه بمجرد انتشار التعليم الحديث، فإنها سوف تفقد قاعدتها الاجتماعية.**

مع ذلك وفى الواقع، لم يكن ذلك اختفاء للأصولية، لكنه كان إعادة للاصطفاف.

استمر الأصوليون فى فعل أفضل ما قاموا بفعله من قبل، وهو نشر الإيڤانجليكية وبناء الكنائس المحلية، بعد أن أصبحوا غير قادرين على السيطرة لا على الطوائف الشمالية الرئيسية، ولا على الثقافة السياسية. وفيما يخص نشر الإيڤانجليكية، فقد كانوا أساتذة فى الإعلام الجماهيرى، وبذلك تكيفوا مع الراديو بسرعة. وقد نمت كنائسهم ووكالاتهم الفردية على المستوى المحلى، حتى ولو أبطأتها ضغوط التمويل الناتجة عن الركود فى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين. انفصل بعض الأصوليين داخل كنائسهم الخاصة، فى حين قبع المحافظون الآخرون فى هدوء داخل الطوائف الرئيسية. أصاب التدهور منظماتهم الوطنية سواء التى داخل الطوائف أو السياسية منها، **لكن الفاعلية على المستوى المحلى ضمنت أن يكون ذلك القطاع من البروتستانتية الأمريكية أحد القطاعات القليلة التى تتمتع بالنمو خلال ثلاثينيات القرن العشرين. وتطلب الأمر عقودًا ليتسنى للأصوليين وورثتهم من الإيڤانجليكيين معاودة البروز داخل الحياة الأمريكية، وعندها فقط لاحظ ذلك الكثيرون من المراقبين أو أخذوه على محمل الجد.**

***